اسم المقرر: الأدب الأندلسي

د. عثمان محمد عثمان الحاج كنه
أستاذ الأدب والنقد المشارك

جامعة الملك فيصل
عمادة التعلم الإلكتروني والتعليم عن بعد

إعداد / حامد الفارس

المحاضرة الأولى

التكوين الجغرافي والبشري للأندلس

عناصر المحاضرة:

تمهيد

اسم الاندلس.

بلاد الأندلس.

سكان الأندلس.

من الظواهر التي تلفت النظر أن العناية بالتراث الأندلسي، وبحياة العرب والمسلمين في الأندلس لم تنقطع، على الرغم من مرور أكثر من خمسة قرون على غياب العربي عن تلك البلاد.

ولقد اهتم العرب بذلك التراث وتلك الحضارة المتألقة، ولم يلبث المستشرقون أن تنبهوا إلى الثراء العظيم في التراث الأندلسي الباقي من المخطوطات العربية الأندلسية.

ولئن ضاع من ذلك التراث الأندلسي الكثير لقد بقي منه ما يسهم في البناء الثقافي والحضاري من جهة، وما يدل على عظمة دور الأندلس في أرض أوربا من جهة أخري.

واستطاع هذا القطر أن تكون له خصوصية في أكثر من جانب من جوانب الفكر والفن والعلم والأدب، ووجوه الثقافة المختلفة.

ووصلت تلك الخصوصية إلي أشياء في العادات والتقاليد.

وكان للأدب مكانة في هذه الهالة الأندلسية الباهرة في جوانب المنظوم والمنثور، فمضى الأندلسيون على آثار المشارقة، وأتقنوا وشاركوا في قضايا الأدب وموضوعاته.

فكان لهم، أحيانا رؤى وملاحظات من خلال تلك المتابعة والمجاراة والمنافسة أيضا.

وأسهموا بالجديد مما ينسب إليهم، وبقي اسمهم لاصقاً به، ودالاً، مع مرور الزمن، عليهم.

وألبسوا بعض الأغراض والموضوعات حلة أندلسية فيها الإبداع والتجديد وفيها التميز والخصوصية.

واشتهر من أهل الأندلس أعلام في فنون النظم والنثر يُعَدَّون في كبار أدباء العربية.

وقد روي أن المتنبي لما سمع بعض شعر ابن عبد ربه من أحد الأندلسيين أعجبه شعره، وقال: يا ابن عبد ربه لقد يأتيك العراق حبوا!.

ومع توالي الأعوام والعصور منذ القرن الرابع الهجري نجد أن الأبواب انفتحت في المشرق على كثير من النتاج الأندلسي، بل أن الموشحات والأزجال الأندلسية انتقلت الى المشرق، وأعْجَبت الناس، حتى إنهم حاكوها.

وإذا وصلنا إلى القرن الحادي عشر قرأنا ما سجله المقري في (نفح الطيب) لأهل دمشق والشام من رغبة لمعرفة الأندلس وثقافتها وآدابها ورجالها.

بينما كان القرن الرابع عشر الهجري وطلائع الخامس عشر مجالاً واسعا للعودة إلى الأندلس.

ومتابعة ما بدأ به المستشرقون الأسبان وغيرهم، واستئنافاً للاهتمام العربي بالأندلس تحقيقاً للتراث الأندلسي، وإبراز لأعلامه، وإعادة لكتابة تاريخه، واهتماماً بجغرافيته وبلدانه....

اسم الأندلس:

أطلق الأغريق اسم ايبريا على البلاد التي عرفت في الحضارة الإسلامية باسم الأندلس، وأطلقوا عليها اسماً آخر هو إسبانيا، فلما دخلها الرومان صار الاسم (Hispania) ورأي بعض المؤرخين أن الكلمة ذات أصل فينيقي.

واسم الأندلس له صلة باسم قبائل الوندال التي سكنت البلاد بعد الرومان، وغُيّر الاسم من (Vandalos أو Wandalos)؛ واتخذ سمتا عربيا فقيل الأندلس، أو بلاد الأندلس.

الأندلس شبه جزيرة يحدها البحر المتوسط شرقا والمحيط الأطلسي غربا ويفصلها عن فرنسا وسائر أوربا شمالا جبال وعرة هي جبال البرتات أو (الأبواب كما تسمى في النصوص العربية) وكان فيها خمسة منافذ للداخل الى الأندلس والخارج منها.

بلاد الأندلس:

الأندلس شبه جزيرة يحدها البحر المتوسط شرقا والمحيط الأطلسي غربا ويفصلها عن فرنسا وسائر أوربا شمالا جبال وعرة هي جبال البرتات أو (الأبواب كما تسمى في النصوص العربية) وكان فيها خمسة منافذ للداخل إلى الأندلس والخارج منها.

ويفصل الأندلس عن المغرب مضيق عرف منذ الفتح الإسلامي بـ (بحر الزقاق) لضيقه، وعرف أيضا بالاسم الباقي الى اليوم: مضيق جبل طارق، وأطلق عليه قديما بحر العُدْوة.

وتتميز بلاد الأندلس بتنوع تضاريسها بين سهول وجبال ووديان وهضاب، وانهار كبرى وصغرى، ونهيرات، اضافة الى الينابيع المعدنية والكبريتية الباردة والحارة.

واوضحت الكتب والدراسات ان الاندلس متعددة الاوصاف في شبة جزيرة مترامية الاطراف، ومتعددة المناخات من السواحل (المتوسطية والأطلسية) الى الهضاب المعتدلة الارتفاع الى الجبال الشاهقة التي تكسوها الثلوج زمانا طويلاً من شهور السنة.

وتتألف هذه الجزيرة من عناصر تضاريسية مختلفة ففي الوسط تشغل الهضبة الكبرى حيزا واسعاً وتتخللها سلاسل جبال ترتفع في معظم أرجائها، ففي الجنوب نجد جبال سيرا مورينا الجبال السمراء وسماها العرب جبال الشارات وبعدها سهل منبسط.

وترتفع في الشمال جبال كانتربيا، وينحدر من غرب الهضبة السهل الغربي، وبها أنهار كثيرة منها الوادي الكبير الذي يروى أراضي السهل الجنوبي، ووادي آنة أو(وادي يانة) وتقع عليه مدن كثيرة، ونهر التاجة وتقع عليه طليطلة ولشبونة، ونهر دويره (ويسمى عند العرب الوادي الجوفي).

وهناك أنهار تصب في البحر المتوسط مثل نهر إيبره وتقع عليه سرقسطة، والوادي الأبيض، ونهر شُقر، ونهر شُقور.

ويلاحظ على الأندلس اختلاف درجات الحرارة اختلافا كبيرا بحسب الأقاليم، تماما كاختلاف أحوال الطبيعة، وأنواع المزروعات والأشجار والمحاصيل الزراعية.

وقد فضل العرب منذ الفتح النزول في الأماكن الخصبة الدافئة.

سكان الأندلس:

أعيد تشكيل سكان الأندلس تشكيلا جديدا بعد الفتح الاسلامي، فإن عناصرها السكانية تتألف من العرب والبربر والإسبان وهؤلاء كانوا قسمين فقسم دخل في الاسلام، وقسم بقي على دينه القديم.

(وكلا الجانبين من الاسبان تعرب واتخذ العربية لغة ادب وفكر وفن وحياة)، ومن عناصر السكان في الأندلس البربر والصقالبة واليهود

وقد استطاعت تلك البلاد أن تصهر هذه العناصر، وتكوّن منها صيغةً أندلسية أسهمت في بناء (الدولة) الأندلسية واظهار وجوهها الحضارية للعالم. حيث تشكلت هذه العناصر كما يلي:

العرب الذين دخلوا مع الفتح عرفوا باسم البلديين.

ويعرف الذين دخلوا مع طالعة بَلّج بن بشر القشيري سنة ١٢٥ باسم الشاميين.

واطلق على الإسبان الذين عاصروا جيل العرب من الفاتحين ودخلوا الاسلام باسم المسالمة.

كما أطلق على من بقوا على دينهم من أهل الذمة باسم العجم أو (عجم الأندلس).

وأطلق على الذين ولدوا من آباء مسلمين ونشؤوا على الإسلام باسم المولدين.

ويطلق لفظ المستعربين على نصارى الإسبان الذين تعايشوا مع العرب وتعربوا واقاموا في ديار الاسلام وقد كفلت لهم الدولة حرية العقيدة.
وقد اطلق اسم الصقالبة في الأندلس على أسرى كان يتاجر بهم تجار من الجرمان وغيرهم، وكان يُسْبَون من مناطق مختلفة، وربما اخذوا من مناطق غير اسلامية في الأندلس.
ووجد اليهود في الأندلس ما وجده بنو جلدتهم في المشرق من سماحة الإسلام وحسن المعاملة وحرية التدين..الخ.
ومن عناصر المجتمع الأندلسي أيضا البربر وقد تشكل جيش الفتح الإسلامي من العرب والبربر.
لقد انصهر السكان في إطار الأندلس الجديدة وعَرف المجتمع الأندلسي التناسق بين عناصره، ولم يَطْغ جانب على جانب، واستطاعت الدول المتعاقبة إقامة توازن شامل، بما في الإسلام من سماحة، وبما في قوانينه وشرائعه من اعتدال.
وكانت الأندلس في ظلال حكم إسلامي متعدد الصور والأطر، فعرفوا نظام الإمارة (القسم الأول من حياة الدولة الأموية)، ونظام الخلافة (منذ عبد الرحمن الناصر الى آخر الدولة الأموية).
ونظما شتى أقرب إلى الإمارة المورثة (دول الطوائف)، حيث ظهرت ألقاب مثل: (أمير المسلمين، أمير المؤمنين، السلطان والملك).
وكان مذهب الدولة المذهب المالكي، مع وجود قلة تتمذهب بمذاهب أخرى كالشافعية والظاهرية، وتُركت للنصارى حرياتهم الدينية التامة، أما اليهود فكانت أيامهم مع المسلمين في الأندلس أياما ذهبية.

المحاضرة الثانية

الحياة السياسية والاجتماعية في الأندلس

<u>عناصر المحاضرة:</u>

مقدمة

فتح الأندلس.

فترات الحكم العربي الاسلامي في الأندلس.

مقدمة:

<u>الأندلس</u> والمغرب جزءان مترابطان من عالم واحد كان يعرف في القديم عند المشارقة بالمغرب الإسلامي، وقد ظلا يتمثلان طوال العصور الوسطى حضارة واحدة مشتبكة العلاقات في السياسة والفكر والاجتماع، وفي العلاقات البشرية المستمرة من هجرة واختلاط وتزاوج.
وقد كونت بلاد المغرب وشمالي إفريقيا و<u>الأندلس</u> وحدة ثقافية ذات طابع خاص جوهره التراث الثقافي العربي الإسلامي، وساعد في حفظه كثرة الانتقال والاتصال.
وقد أدت <u>الأندلس</u> دوراً بارزاً في النهضة الأوربية عن طريق نقل هذا التراث كما يشهد بذلك الباحثون، مما يجعل الحديث عن فضل الحضارة العربية الإسلامية من الوقائع التاريخية الثابتة.

فتح الأندلس:

فكر العرب في تحرير أسبانيا بعد أن طردوا البيزنطيين من شمال أفريقيا، وكانت إسبانيا (الأندلس) قبل الفتح الإسلامي في ظل دولة القوط التي امتدت زهاء قرنين من الزمان.
وكان المجتمع الإسباني انذاك يعاني من صنوف الشقاء والبؤس والظلم والإرهاق والإيثار.
فكان سواد الشعب قوامه طبقة متوسطة رقيقة الحال، وزراع شبه أرقاء، وحكام وسادة وأشراف يستاثرون بمزايا الغلبة والسيادة، ورجال دين يتمتعون بأعظم قسط من السطان والنفوذ.

وقد سبق الفتح الإسلامي حملة صغيرة استكشافية لتحسس الأحوال بقيادة طريف بن مالك في رمضان عام ٩١هـ من سبتة الى بقعة مقابلة في أرض الأندلس سميت باسم طريف ومايزال اسمها حتى اليوم.
ونتيجة للتعاون بين العرب والبربر بعد تحرير شمال أفريقيا، جهز موسى بن نصير جيشاً مؤلفاً من اثني عشر ألف جندي لفتح بلاد إسبانيا بقيادة طارق بن زياد حاكم طنجة.
وذلك في رجب من عام (٩٢هـ/ ٧١١م)، ونزل أول مانزل في المكان المسمى الى اليوم باسم جبل طارق.
وانتصر طارق بن زياد في أولى المعارك عند وادي لكّه، ومن ثم قسم جيشه الى أربعة فرق سارت تفتح بلاد الاندلس بيسر وسهولة في معظم الأماكن، لأن الشعب الأسباني كان يتلقى العرب بالترحاب حباً في التخلص من ظلم حكامه القوط.
ولم يلبث موسى بن نصير أن لحق بطارق بن زياد وأنجزا فتح الاندلس، واستقر العرب فيها زهاء ثمانية قرون حتى سقوط غرناطة عام (٨٩٧هـ/١٤٩٢م).
وقد وصفها القائد العربي في رسالة للخليفة الأموي أنها:
(شامية في طيبها وهوائها يمنية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، أهوازية في عظم جباياتها، صينية في معادن جواهرها، عدنية في منافع سواحلها).
وتميزت الفترة الأولى من تاريخ العرب في الأندلس بعدم الاستقرار وانشغال الولاة فيما بينهم بالمنازعات مما مهد لدخول عبدالرحمن الداخل الأموي (صقر قريش) وأسس الدولة الأموية في الأندلس بعصريها (الأمارة والخلافة).
فترات الحكم العربي الإسلامي في الأندلس: يقسم الحكم العربي الإسلامي في الأندلس الي ستة عصور سياسية هي:
عصر الولاة (٩٥-١٣٨هـ):
حكم الأندلس خلال هذه الفترة ثمانية عشر واليًا؛ يعيَّنهم تارة الخلفاء الأمويون في دمشق وأخرى عُمالهم في إفريقيا، وأول هؤلاء الولاة، عبد العزيز بن موسى بن نُصَيْر وآخرهم يوسف بن عبد الرحمن الفِهْري.
امتاز هذا العصر بالصراع القبلي بين العرب والبربر الذين كانوا يفخرون بأنفسهم، لأن فتح الأندلس تم على يد رجل منهم هو طارق بن زياد، ثم ظهر نزاع قبلي آخر بين من عرفوا بالبلديين والشاميين.
وكذلك كان ثمة صراع قبلي ثالث بين المُضريَّة واليمنية ترك بصماته على هذه الفترة.
لذلك لم يكن هذا العصر مهيئًا لنهضة أدبية أو علمية بسبب عدم الاستقرار السياسي، ومن ثم لا نجد خطوطًا أدبية مميزة لهذه الفترة.
الدولة الأموية: ينقسم هذا العصر إلى قسمين:
الأول إمارة قرطبة (300 - 138)هـ):
وتأسست على يد عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان الذي عرف بعبد الرحمن الداخل.
وقد استطاع الداخل بعد سقوط الخلافة الأموية في دمشق أن ينجو بنفسه ويخوض مغامرات كثيرة جعلت منه صقر قريش الذي أسس مجدًا للأمويين في الأندلس، حيث تناوب على حكم إمارة قرطبة من بعده ستة من أبنائه وأحفاده.
وفي هذا العصر نمت قوة المسلمين بالأندلس وانعكس أثرها في سياستهم الخارجية، على حين أن النشاط الداخلي شهد حركة من البناء والعمران جعل من قرطبة العاصمة درة بين العواصم المشرقية والغربية.

وكان الأمير الحكم بن هشام مؤثرًا للعلماء والفقهاء، وكان عبد الرحمن الأوسط هو أشهر أمراء قرطبة في رعاية العلوم والآداب والفنون، وعلى كلٍ فقد نهض الأدب في هذا العصر نهضة واسعة بسبب عناية الحكام بالأدباء والعلماء وتيسير سبل حياتهم.

أما القسم الثاني فهو عهد خلافة قرطبة (422 - 300هـ).

حيث تحولت إمارة قرطبة إلى خلافة عظيمة على يد عبد الرحمن الثالث، وهو عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط، وعرف بعبدالرحمن الناصر. وهو أول من تسمى من أمراء الأمويين في الأندلس بأمير المؤمنين وأعلن نفسه خليفة بالأندلس وتلقب بالناصر لدين الله.

لم تشهد الأندلس عصرًا بلغ ذروة ازدهاره في مختلف مجالات الحياة، مابلغته الأندلس في هذا العصر. فقد نهضت الآداب والعلوم والفنون نهضة واسعة. وكان عبد الرحمن الناصر كثير العناية بالشعراء والكتاب، وأصبح بلاطه قبلة لأهل العلم والأدب.

وانتقلت الخلافة بعد عبد الرحمن الناصر إلى ابنه الحكم وكان أمره كأبيه، فواصلت الأندلس مسيرتها العطرة في مختلف المجالات. وكان الحكم قد عهد في حياته بأمر الإشراف على ابنه القاصر هشام وعرف بلقبه (هشام المؤيد).

وصعد نجم محمد بن أبي عامر الذي كان وزيرا للحاجب ومالبث أن استبد بالحكم، وجعل الخليفة مجرد رمز لاقوة له، وتبدأ من هنا سيطرة ابن ابي عامر الذي عرف بـ(الحاجب المنصور).

وبموت المنصور بن أبي عامر (٣٩٢هـ) دخلت الأندلس في الفتن والصراعات التي أدت إلى انقطاع الدولة الأموية وموتها باندثار عقد الخلافة، وكان ذلك بداية النهاية في الأندلس..

عصر ملوك الطوائف (٤٠٠ - ٥٣٦هـ):

تقسَّمت الأندلس عقب سقوط الخلافة الأموية إلى عدد من الدويلات والطوائف، ومن أهم هذه الدويلات:

دويلات العامريين في بلنسية.

دولة بني هُود في سرقسطة.

دولة بني ذي النُّون في طليطلة.

دولة بني زيري في غرناطة.

دولة بني الأفطس في بطليموس.

دولة بني جَهْوَر في قرطبة.

دولة بني عَبّاد في اشبيلية وكانت اكبر الدول واشهرها.

وقد نشأت بين حكام هذه الممالك وملوكها حروب متصلة، بلغ الأمر فيها استعانة بعضهم بملوك الفرنجة. كما تجاوز التنافس السياسي بينهم إلى التنافس في مجالات العمران والأدب والفن وتشجيع الكتاب والشعراء.

وبالرغم من ذلك شُغِل فريق بالبهرج والترف والتهافت على الصغائر والتلقب بنعوت الخلفاء، مما جعل سخرية الشاعر ابن عمار صادقة في حقهم حين يقول:

مما يُزَهِّدني في أرض أندلس

أسماءُ معتضد فيها ومعـــــتمد

ألقاب مملكة في غير موضعها

كالهرِّ يحكي انتفاخًا صولةَ الأسد

وعلى كل حال حظيت الحركة الأدبية برعاية فائقة على يد عدد من هؤلاء الحكام الذين كانوا أنفسهم شعراء وأدباء، كالمعتمد بن عَبَّاد في أشبيلية والمظفر وابنه المتوكّل في بَطَلْيَوْس.

دولة المرابطين (٤٩٥ - ٥٥٥هـ).

نشأت دولة المرابطين في المغرب على يد أحد زعماء قبائل صنهاجة، وكان أساسها دينيًا. وبعد موت مؤسسها آل أمرها إلى أسرة بني تاشفين، وكان يوسف بن تاشفين هو المقدم في هذه الدولة التي أقامها على قاعدة من الجهاد الديني العريض.

وفي هذه الفترة هاجم الأسبان الدويلات الأندلسية تحت راية الصليب، وقضوا عليها واحدة تلو الأخرى، حتى بلغوا مدينة أشبيلية، فاضطر حاكم أشبيلية المعتمد بن عباد إلى طلب النجدة من أمير المرابطين بالمغرب وعندما روجع في ذلك قال قولته المشهورة:

(رعي الجمال خير من رعي الخنازير).

وكان أنْ لَبَّى يوسف بن تاشفين استغاثة الأندلس وعبر إلى نجدتهم وانتصر على الفرنجة في الموقعة المشهورة بالزَّلاقة (479هـ) وعاد إلى المغرب منصورًا مظفرًا. وعاد ثانية سنة (٤٨١هـ) برسم الجهاد.

ثم عبر مرة ثالثة إلى الأندلس وكان برغبة الفقهاء وأهل الحل والعقد لارغبة الأمراء والحكم، وكان يهدف الى إزالة دولة الطوائف والجهاد للحفاظ علي الاندلس، وتوفي يوسف سنة ٥٠٠هـ وقام ابنه عليٌ بالأمر من بعده.

كان حكم المرابطين في الأندلس يرتكز على قاعدة من الجهاد الديني، ومن ثم نعم العلماء والفقهاء في عصرهم بتكرمة وتجلة، وقلّ حظ الشعراء والأدباء.

بدأ المرابطون ينغمسون في حياة الأندلس وما فيها من دعة وترف ومجون، ويفقدون سَمْتَهُم الحربي، ونتيجة لذلك مُنيَت جيوشهم بهزائم متلاحقة من جيوش الفرنجة. ثم ثار في عام ٥٤٠هـ أهل أشبيلية عليهم وخرجوا عن طاعتهم وبايعوا عبد المؤمن بن علي خليفة المهدي بن تومرت مؤسس دولة الموحدين بالمغرب.

دولة الموحدين (٥٢٤ - ٥٦٧هـ).

دولة إفريقية قبلية دينية، نشأت في المغرب في أعقاب دولة المرابطين. وترجع في نشأتها إلى قبائل المصامدة. وجوهر دعوتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وكان مؤسسها ابن تومرت صاحب ورع ونسك وغيرة على الدين وفصاحة وبيان.

وفي أعقاب ثورة أهل الأندلس على المرابطين وخلع طاعتهم تردت الأندلس إلى مثل حالها في عهد ملوك الطوائف، فعبر عبد المؤمن بن علي سنة ٥٢٥هـ إلى الأندلس وفتح كثيرًا من مدنها وضمها إلى مُلكه، وجعل أشبيلية عاصمة له، وكان ذلك نهاية دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين بها.

اهتم الموحدون بأمور الدين والعقيدة اهتمامًا عظيمًا، وحظيت العلوم والآداب بتشجيعهم، كما اهتموا بالبناء والمعمار، وبلغت هذه الدولة أوج مجدها في عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، ثم في عهد ولده أبي يوسف. وقد دام حكم الموحدين للأندلس حوالي مائة وثلاثين سنة.

حيث تمكن ملوك النصارى من بعدها من استرداد المدن واحدة فأخرى فيما عرف بحرب الاسترداد، فسقطت أشبيلية وقرطبة وبلنسية ومرسيلية، وانحصرت دولة الأندلس في رقعة صغيرة في الجنوب هي ماعُرف بدولة بني الأحمر.

دولة بني الأحمر (مملكة غرناطة، أو دولة بني نصر، (٦٣٥- ٨٩٨هـ).

بعد سقوط دولة الموحدين في الأندلس تمكّن محمد بن هود صاحب بطليوس من مدِّ نفوذه على عدد من المدن الأندلسية. وفي هذه الفترة ظهر محمد بن يوسف بن نصر من بني الأحمر وهم آخر ملوك العرب في الأندلس، وأخذ يتصدى لقتال النصارى، مشكلاً مع ابن هود شرارة الجهاد، غير أنَّ كليهما كان أضعف من أن يحمي مملكته من النصاري.

فاستطاع الإفرنج الاستيلاء على ألمريَّة وقتل ابن هود ولم يبق للمسلمين في الأندلس سوى غرناطة يتولى أمرها بنو الأحمر، وقد استطاعت هذه الدويلة الصغيرة أن تؤخر خروج المسلمين من الأندلس نحو قرنين ونصف من الزمان.

أقام بنو الأحمر مملكة غرناطة في هذه الظروف الصعبة، فمن الناحية السياسية كان عصرهم عصر فتن وانقلابات، وعصر حروب متصلة بين المسلمين والنَّصارى، وبينما كان نصارى أوروبا يتجمعون في أسبانيا للقضاء على المسلمين في الأندلس، كانت الحرب على أشدها بين السلطانين، وانتهى الأمر بالانقسامات الداخلية، وقد بلغ النصارى مشارف غرناطة.

فعقد مجلس أشار الأعيان فيه بتسليم المدينة وكان ذلك آخر أمر المسلمين في الأندلس، فسلّم أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة مفاتيحها إلى فرديناند وإيزابللا، وانطوت عام ٨٩٨هـ صفحة من تاريخ الإسلام في الأندلس بعد قرون ثمانية خلفوا فيها زخمًا من الآثار والحضارة في مختلف المناحي.

والخلاصة يمكن القول أن هذه العصوراتسمت بسمات خاصة، فإن كان عصر تأسيس الإمارة هو بداية الطريق في وضع اللبنات الأولى لما أعقبه من نهضة عمرانية وعلمية وأدبية، فإن العصر الأموي يمثل ذروة مابلغته الأندلس من نهضة مزدهرة.

أما عصر ملوك الطوائف، فبالرغم من ترديه السياسي، تميّز بازدهار الحركة الأدبية وكثرة الشعراء وازدهار فن الموشح، مع تأسيس لمكانة العلماء والأدباء، لما وجدوه من حفاوة في بلاط الحكام المختلفين.

أما عصر المرابطين فكان عصرًا دينيًا ضعفت فيه الحركة الأدبية شيئًا، وظهر فيه فن الزجل ولقي رواجًا كبيرًا.

ومثله كان عصر الموحدين الذي أدى التأمل الديني فيه إلى نشاط الحركة الفلسفية وما تبع ذلك من التفكير الفلسفي الحر.

ويبقى عصر بني الأحمر أو عصر الجلاء بما فيه من حياة قلق وتوجس وترف ورخاء يفيض بشعر كثير، فهو تارة يصف النكبة وأخرى يصور حياة الدعة والمجون، فقد نضجت الفنون الأدبية على نار هادئة من المحن والكوارث، فنهض الموشح والزجل والشعر نهضة واسعة.

المحاضرة الثالثة

الحضارة الاسلامية العربية في الأندلس

<u>عناصر المحاضرة:</u>

مقدمة.

الحضارة الإسلامية العربية في الاندلس.

أثر العرب على الأندلس وأوربا.

مقدمة:

لم يكن الفتح العربي لأسبانيا احتلالاً عسكرياً بل كان حدثاً حضارياً هاماً وحركة تحرير للشعوب الأسبانية فقد أمتزجت حضارة سابقة كالرومانية والقوطية مع حضارة جديدة هي الحضارة الاسلامية العربية، ونتج عن هذا المزج والصهر حضارة أندلسية مزدهرة أثرت في الحياة الأوربية وتركت آثاراً عميقة مازالت تتراءى مظاهرها بوضوح حتى اليوم.

وكان للسلوك العربي الانساني أثر كبير في تآلف القلوب الذي أدى الى التزاوج والمصاهرة بينهم، فجاؤوا بلغة حية تأثرت بها اللغتان الإسبانية والبرتغالية، وبمد حضاري يحمل العلم والمعرفة والعدل

والسلام والامن والايمان. فنشأت طبقة اجتماعية جديدة هي طبقة المولدين ، كما ظهرت طبقة جديدة أخرى هي طبقة المستعربين.

وحرص العرب على الوفاء بعهودهم لأهل الذمة حتى في الحالات التي كان يبدو للمسلمين أنهم خدعوا فيها، وكان لها أثرها الكبير في اجتذاب أهل الذمة إلى الاسلام واقناعهم بعدالة الدولة العربية، وهذا هو السر في إقبال أهل الذمة على الدخول بأعداد كبيرة في الاسلام.

وأدى ذلك إلى دخول كثير من الكلمات الاسلامية واستعمالها بألفاظها العربية من قبل سكان الأندلس مثل كلمة الله Alah، القرآن Alcoran، الحديث Hadith....الخ.

لقد أثر العرب في أخلاق الشعوب النصرانية فقد علموهم التسامح، وبلغ حلم عرب الأندلس بأن سمحوا لأساقفتهم أن يعقدوا مؤتمراتهم الدينية كمؤتمر أشبيلية الذي عقد سنة ٧٨٢م.

ومؤتمر قرطبة الذي عقد سنة ٨٥٢م، فغدا اليهود والنصارى مساوين للمسلمين قادرين مثلهم على تقلد مناصب الدولة.

الحضارة الاسلامية العربية:

ولم يكد العرب يتمون تحرير أسبانيا حتى بدأوا بتطبيق رسالتهم الانسانية في الحضارة فاستطاعوا في أقل من قرن أن يعمروا خراب المدن ويقيموا أفخم المباني، ويوطدوا وثيق الصلات التجارية بالأمم الأخرى.

وشرعوا بدراسة العلوم والآداب وترجمة كتب اليونان واللاتين، وأخذت حضارة العرب تنهض في الأندلس منذ انفصالها عن الشرق سياسياً باعلان إمارة قرطبة سنة (١٣٨هـ/ ٧٥٦م) فغدت الأندلس أرقى دول العالم حضارة مدة ثلاثة قرون.

وفي مثل هذا الجو من التسامح أصاب البلاد الاستقرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي بحيث أصبحت الأندلس أكبر قوة سياسية في المنطقة، وعلى الرغم من هذا التسامح العظيم، فقد ظهر فرق واضح بين هذه السياسة المتسامحة، وبين سياسة الاضطهاد الأعمى الذي وقع على المسلمين بعد سقوط الأندلس.

امتازت حضارة العرب في الأندلس بميلها الشديد إلى العناية بالآداب والعلوم والفنون، فأنشأوا المدارس والمكتبات في كل ناحية وترجموا الكتب المختلفة، ودرسوا العلوم الرياضية والفلكية والطبيعية والكيمياوية والطبية بنجاح ولم يكن نشاطهم في الصناعة والتجارة أقل من ذلك.

وأكثروا من انشاء الطرق والجسور والفنادق والمساجد في كل مكان، وكانت البحرية العربية في الأندلس قوية جداً (فانشأوا أسطولاً ضخماً لمواجهة قوة الأسطول البيزنطي) وبفضلها كانت تتم صلات العرب التجارية بجميع مرافئ أوربا وأفريقيا وآسيا،

فالحضارة العربية في الأندلس مرت بأدوار، وخضعت لمؤثرات حضارية منها ما ترجع أصولها إلى الأم (الحضارة العربية في المشرق) كما خضعت أيضاً لمؤثرات حضارية محلية بحكم البيئة التي نشأت فيها وبدرجة محدودة.

فالنظم السياسية والادارية والعسكرية والمالية كانت صدى للنظم القائمة في العراق والشام.

فأقاموا نظام الأمارة ثم الخلافة على غرار النظم العربية في المشرق، كما استحدثوا نظام الوزارة والدواوين كتلك التي كانت سائدة أيام الخلافة العباسية في بغداد، لكنهم طوروا في هذه المناصب، وخاصة الوزارة، حيث أصبحت متعددة المناصب ولها رئيس وزراء وهو الحاجب.

واهتم خلفاء بني أمية في الأندلس بتأسيس المكتبات فنقلت من كتب الشرق العربي الشيء الكثير من الكتب وشارك الرحالة من الأندلسيين في ذلك وقام العلماء وطلاب العرب في نقل الكتب وأقبلوا على ترجمتها في مختلف صنوف العلم والمعرفة.

فيذكر أن المستنصر بالله ٣٥٠- ٣٦٦هـ/ ٩٦١- ٩٧٦ أنشأ مكتبة عظيمة فيها شتى العلوم والفنون، كما أنشأ داراً لنسخ الكتب وأودعها بمدينة الزهراء.
كما ألف الأندلسيون في علوم القرآن والحديث والفقه، وفي القضاء واللغة وآدابها وعلومها والمعاجم والتراجم، والتاريخ والسيرة والجغرافيا، وألفوا في علوم الطب والحساب والهندسة والفلك والكيمياء والمنطق والفلاحة والملل والنحل، وفي الفلسفة والموسيقى، بحيث لم يتركوا حقلاً من حقول العلم والمعرفة. وقد برز جملة من العلماء نذكر منهم عبدالملك بن حبيب السلمي (ت٢٣٨هـ)
ألف كتابه الموسوم (التاريخ) مخطوط ومحفوظ في أكسفورد تناول فيه تاريخ العالم من بدء الخليقة حتى فتح الأندلس وإلى عصره.
والعالم اللغوي أبا علي القالي الذي وفد على الأندلس في أيام عبد الرحمن الناصر سنة ٣٣٠هـ وأصله من العراق، ومن أهم أعماله كتاب (الأمالي) وهو عبارة عن محاضرات أملاها على تلاميذه الأندلسيين في مسجد قرطبة.
وألف أبو بكر محمد المعروف بابن القوطية (ت٣٦٧هـ) كتاباً في تاريخ الأندلس أسماه (تاريخ افتتاح الأندلس) نشره المستشرق الأسباني جوليان رايبيرا سنة ١٨٦٨م.
ومن شيوخ ذلك العصر العالم المغربي محمد بن حارث الخشني (ت٣٦١هـ) الذي ألف كتاب (القضاة بقرطبة) تناول فيه الحياة الاجتماعية في الأندلس نشره المستشرق الأسباني ريبيرا.
وألف ابن حزم العديد من الكتب في أنساب العرب، وفي علماء الأندلس، وفي تاريخ الأديان وأبرز ما ألف في هذا المجال هو كتاب (الفصل في الملل والأهواء والنحل).
ومما ساعد على انتشار الكتب وازدهار الحياة العلمية انتشار صناعة الوراقة في الأندلس حيث تولى الوراقون نسخ ما يظهر من مؤلفات، كما اشتهرت الأندلس بمصانع الورق، وتميزت بهذا الانتاج بعض المدن مثل غرناطة وبلنسية وطليطلة، وقد نقلها عرب الأندلس من بغداد بواسطة عرب صقلية والأندلس إلى أوربا.
وكان للادب مكانه عظيمة في الأندلس في جوانب المنظوم والمنثور، حيث نهضت الحركة الأدبية في هذا العصر، فجعل الحكام بلاطهم عامرًا بأهل العلم والأدب وذلك بحكم طبيعتهم العربية.
كما كان عبد الرحمن الداخل نفسه شاعرًا وأديبًا. ومن أشهر مقطوعاته الشعرية وصفه للنخلة التي أهاجت شجنه وذكرته بوطنه حين يقول:

تَبَدَّتْ لنا وسط الرَّصافة نخـــلةٌ تناءت بأرض الغرب عن وطن النخل
فقلت شبيهي في التغرُّبِ والنَّوى وطول التنائي عن بَنِيَّ وعن أهــلي
فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي نَشَأتِ بأرض أنت فيها غــريبةٌ

وكذلك كان الحكم بن هشام بليغًا فصيحًا شاعرًا مجيدًا.ومن زمرة الأمراء الشعراء عبد الرحمن الأوسط ، وكذلك آخر أمراء قرطبة عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن فكان شاعرًا مطبوعًا، ومن شعراء الإمارة من غير الأمراء عاصم بن زيد العبادي، الذي جعل من محنة العمى موضوعًا لشعره.
ومن ألمع الشعراء والأدباء العرب في الأندلس ابن عبد ربه وابن حزم وابن زيدون وابن خفاجة..الخ
واحتلت المرأة في الأندلس منزلة عظيمة، ونالت حظاً وافراً من التعليم، ونبغت في العلوم والآداب والفنون كثيرات:
قيل إن مئة وسبعين امرأة بضاحية قرطبة الشرقية كن يعملن يومياً في نقل نسخ من القرآن الكريم بالخط الكوفي.
وإن «إشراق العروضية» (القرن الخامس الهجري) كانت تحفظ «الكامل» للمبرد، و«النوادر» للقالي.
وكان يعهد إلى النساء بتربية أبناء الأمراء والأغنياء وتأديبهم.

فابن حزم تلقى ثقافته الأولى على يد نساء قصر أبيه، وهن علمنه القرآن، وروينه الأحاديث الشريفة، ودربنه على الخط.
وكانت الشواعر ملمحاً بارزاً من ملامح الشعر الأندلسي لوفرتهن ونبوغهن، وقد ارتبط شعر النساء باسم ولادة (ت٤٨٤هـ) بنت الخليفة المستكفي (ت ٤١٦هـ) فقد غشي منتداها فرسان النظم والنثر، ومنهم ابن زيدون (ت٤٦٣هـ) الذي نعم بوصلها، وشقي بهجرها، فقال فيها أجمل الغزل وأرقه. وتعد حَسانة التميمة سيدة شواعر عصرها غير منازعة.
وقد كان الشعر في هذه الفترة يسير على الاتجاه المحافظ في المدرسة المشرقية ويتبع منهج القدماء في بناء القصيدة واستيحاء صورها من عالم البادية وترسم موضوعات الشعر التقليدي.

كما نتج عن انتشار اللغة العربية بين الأندلسيين اختراع فن شعبي أندلسي جديد، هو فن (الموشحات) ويقال: إن مخترع هذا الفن رجل ضرير من بلدة قبره Cabra بجوار قرطبة اسمه مقدم بن معافى القبري عاش في أواخر القرن الثالث للهجرة التاسع للميلاد.
وتفنن الشعراء في صياغته حتى صارت الموشحة كالقصيدة الشعرية واستخدمه الصوفية في مدائحهم وأذكارهم.
وقد أثرت الأغنية الشعبية العربية في الشعر الأوربي باسم الشعر البروفنسي الذي كان ينشده التروبادور أي (المغنون المتجولون) في جنوب فرنسا وايطاليا وأسبانيا وغيرها من البلدان الأوربية.
واستحدثوا فناً آخر سموه (الزجل) وجاءوا فيه بالغرائب، وهذه الطريقة الزجلية هي فن العامة بالأندلس، وهم ينظمونه في سائر البحور بالعامية.
وكانت النتيجة من إزدهار الحياة الأدبية أن انتشرت اللغة العربية والثقافة العربية والعادات والتقاليد العربية الاسلامية في أوربا وقد زخرت الألفاظ العربية في اللغة الأسبانية والقونية والفرنسية.
واشتهرت الأندلس بالمنشآت المعمارية العظيمة، ويعد جامع قرطبة الذي بني في القرن الثاني للهجرة (الثامن للميلاد)، وبعض المباني في طليطلة من آثار الدور الأول لفن العمارة العربي في الأندلس.
كما تعد منارة أشبيلية (لعبة الهواء) التي أنشأها الموحدون في القرن السادس للهجرة (الثاني عشر للميلاد) والقصر الأشبيلي من آثار الدور الوسيط لفن العمارة العربي.
ومن مباني العرب العظيمة في الأندلس مدينة الزهراء التي شيدها عبدالرحمن الناصر على بعد ثمانية كيلومترات شمال غرب قرطبة على سفح جبل العروس ومازالت تحتفظ باسمها العربي في اللغة الأسبانية، وبنى فيها قصره المشهور بقصر الحمراء.
وطبق العرب النظريات الهندسية على فن البناء فشيدوا الأبنية التي تميزت بالفخامة والاتقان والمتانة.
كما اهتموا بهندسة الري أيضاً وذلك لأن تنظيم الري يتطلب معرفة دقيقة بمستوى الأرض وانحدارها وبكمية الماء وسرعة مجراها، ومواد البناء وطرق بنائها.
واستعملت الكثير من الألفاظ أو التسميات العربية في مجال العمارة في الأندلس وأوربا مثل البناء: الطوب Adube، القصر Alcosar، مسجد Mosuqee، منبر Minbar، منارة Minaret، محراب Mihrab.
إن الحضارة العربية التي نشأت في الأندلس، وازدهرت لم تقف عند حدود الأندلس فاستمرت العلاقات الاقتصادية والثقافية والحضارية بين الأندلس وأوربا وبينها وبين الشرق وبيزنطة ولم تنقطع رغم وقوع حروب بحرية وبرية طويلة
لقد كان للاستقرار السياسي والاجتماعي، والرفاء الاقتصادي والتقدم العلمي والعمراني أثره الكبير في نشاط وازدهار التجارة في الأندلس.

وأدى الاتصال التجاري بين الشرق والغرب وبين الأندلس وأوربا إلى دخول مفردات وألفاظ عربية كثيرة وأسماء منتجات وسلع تجارية ومكاييل ومقاييس وأوزان وعملات كانت تستعمل في التجارة إلى اللغة الفرنسية واللغات الأوربية، مثل:
السوق Souk، دكان Dogana، مخزن Magozzia، التعريفة Tarifa، المناداة (المزايدة) Almoneda،
ومن الألفاظ الأخرى التي كانت تستعمل في التجارة العملات والمقاييس والمكاييل والأوزان مثل:
دينار Dinar، درهم Adorme، قنطار Kantar، قيراط Corat، مثقال Molacal، عشر Achour، أردب Ardib، المد Almud.
أما في مجال العلوم الرياضية يعتمد على الرموز والأحرف بالاضافة إلى أن الأرقام الأوربية الحالية مأخوذة أصلاً عن طريق العرب ومازالت تسمى بالأرقام العربية ومثلاً على ذلك:
الجبر Algebra، الخوارزمي (المقصود به الحساب) Algursime، المقابلة Almohabel، الصفر Cipher، وكلمة الصفر العربية تدل على انتقال طريقة الحساب العربي واستعمالها من قبل الأوربيين.
وازدهر علم الهيئة (الفلك) عند العرب في الأندلس لحاجتهم إليه في تحديد القبلة وتعيين أوقات الصلاة، وقد تطور هذا العلم إلى دراسة حركات النجوم، وظهور حركة التنجيم، واخترعوا الساعات الشمسية لمعرفة الأوقات، فقد صنع عباس بن فرناس أول آلة (وهي نوع مبتكر من الساعات).
ولم يقتصر الأندلسيون على العلوم العملية بل كانت لهم دراسات في علوم أخرى كالفيزياء، وعلم العقاقير، والزراعة (علم الفلاحة) والذي أبدعوا فيه وصنفوا التصاميم المشهورة، مسجلين ما توصلت إليه تجاربهم في النباتات والتربة.
وأثمرت جهود العرب في تطوير علم الطب وتأثرت ثقافة الغرب الطبية تأثراً عميقاً بما اقتبسه من العرب في هذا المضمار، والعرب أول من مارسوا عمليات الجراحة في العالم إطلاقاً، ووضعوا المؤلفات فيها وفي طرقها، والأمراض التي يجب استئصالها والآلات والأدوات التي تستعمل، وهم أول من اكتشفوا وسائل التخدير، وأنشأوا المستشفيات، وقسموها قسمين: قسم للرجال والنساء.

وأنجبت الأندلس أشهر جراح عربي هو أبو القاسم الزهراوي سنة ٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م فكان طبيباً خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة وله تصانيف في الطب وأفضلها كتابه الكبير المعروف بـ (الزهراوي) ومن مؤلفاته الأخرى كتاب (التصريف).
كما اشتهر أطباء الأندلس بطب الأسنان وجراحتها، وفي تركيب الأدوية، وأشهر من برز فيهم في هذا العلم ابن البيطار.
وتحفل كتب التراث والتاريخ بأسماء العديد من علماء النبات والعقاقير الصيدلانية الذين عاشوا في الأندلس، وتركوا كتباً قيمة في النباتات وصناعة الأدوية والعقاقير، وقد استعملت كتبهم قروناً عدة كدستور للصيادلة وبكلماتها العربية في حقل النبات والصيدلة في أوربا.
وأزدهرت الحياة الاجتماعية في الأندلس بظهور المدارس الموسيقية، فقد شاع الغناء الحجازي والموسيقى الحجازية، وانتقل هذا الفن إلى الأندلس عن طريق الجواري والمغنيات والمغنين، ولعبت الموسيقى العربية دورها في الأندلس، فالمدرسة الموسيقية التي أسسها زرياب وأبناؤه وبناته وجواريه كان لها تأثير كبير في الحياة الاجتماعية.

وعرف الأوربيون في لغتهم أسماء كثير من الآلات الموسيقية العربية واستعملوها بألفاظها العربية، مثل: القانون Kanoan، الطبل Timbal، النقارة Naker، القيثارة Cuitar، الرباب Rebee، والعود Luth.
وأدخل العرب بعض صناعات المشرق العربي إلى الأندلس ومنها انتقلت إلى أوربا خاصة صناعة السجاد.
واهتم الأندلسيون بالتاريخ واعتبروه علماً له أصوله، ومن المؤرخين الأندلسيين أحمد ابن محمد الرازي، وابن حيان القرطبي، وابن الخطيب فقد ألفوا في تاريخ المدن والتاريخ العام وفي التراجم.
وكان للعرب في الأندلس نصيب وافر في علم الجغرافيا، فمنهم من له مصنفات في الجغرافيا على درجة عالية من الأهمية، منهم أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس العذري.
وعني العرب في الأندلس بالدراسات الفلسفية، فنقلوا إلى الغرب فلسفة اليونان وما أضافوا إليها، وكانت من أكبر مشكلاتهم الفلسفية محاولة التوفيق بين الدين والفلسفة، وأكبر فلاسفتهم ابن رشد المشهور بشروحه لفلسفة أرسطو، وقد أثرت تأثيراً قوياً في أوربا، وأشهر كتبه كتاب (تهافت التهافت)

واهتم العرب بعلم الحيوان فذكروا أنواعها من وحشية وأليفة، وطيور، وحشرات، وأسماك، ووصفوها وصفاً دقيقاً، وبينوا أشكالها وصفاتها وطبائعها، فانتقلت أسماء كثير من الحيوانات والطيور والأسماك بألفاظها العربية إلى أوربا وأفريقيا وآسيا.
تاثير العرب على الأندلس وأوربا:
لقد كان تأثير العرب الخُلقي على الأندلس وعلى أوربا كبير جداً، وأن العرب هذبوا البرابرة بتأثيرهم الخلقي، وأنهم الذين فتحوا لأوربا ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية بتأثيرهم الثقافي.
إن التراث العربي الاسلامي في النواحي العلمية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والروحية قد انتشر سياسياً وحضارياً وحربياً في جنوب أوربا وغربها وأسس العرب مراكز لحضارتهم فيها، وقد نبغ في هذه المراكز مترجمون نقلوا جوانب مهمة من التراث العربي الاسلامي إلى لغاتهم.
وقد حاول بعض الأوربيين التقليل من شأن العرب في نهضة أوربا وازدهارها وهم ينسون مثلاً أن الإدريسي والخازن قد سبقا نيوتن في القول بالجاذبية،
وأن ابن النفيس قد سبق (هارفي) إلى كشف الدورة الدموية، وأن ابن مسكويه قد سبق (دارون) في القول بالتطور.
وابن خلدون قد سبق (لامارك) في القول في أثر البيئة على الأحياء، وأن ابن سينا قد سبق علماء الغرب في الطب والمعادن والنبات والحيوان، وأن ابن يونس وابن حمزة قد مهدوا كثيراً بكشوفهما إلى معرفة اللوغاريتمات وحساب التكامل والتفاضل، وأن الخوارزمي أول من ألف في الحساب والجبر بطريقة علمية منظمة.
وللدلالة على عظم التراث العلمي العربي ما خلفوه في خزائن الكتب الموجودة في العالم والمحفوظ منها أسماؤهم في فهارس الكتب لتثبيت مدى عظم الحضارة العربية في مختلف صنوف العلم والمعرفة، وبذلك فقد كان للحضارة العربية الاسلامية فضل جليل على أوربا وكانت عاملاً مهماً في نهضتها.

المحاضرة الرابعة

الأدب العربي في الأندلس
<u>عناصر المحاضرة:</u>

مكانة الشِّعْر عند الأندلسيِّين.
نشأة الشعر الأندلسي.
اتجاهات الشعر الأندلسي.
أهم الأغراض الشعرية بالأندلس.
الأغراض الشعرية التقليدية بالأندلس.
الهجاء.المدح.الغزل.الفخر.الزهد.
كان للأندلسيين عناية خاصة باللغة وعلومها وآدابها، إضافة إلى الفقه وعلوم الشريعة، وقد استقدم الخلفاء العلماء من المشرق لينقلوا معهم كنوزهم الأدبية فيتأدب بها الكثيرون. فبرع الأندلسيون في مجال المنظوم، وتعددت فنون النثر العربي عندهم، وسوف نتناول فيما يلي مجهوداتهم في مجالي الشعر أولاً والنثر ثانياً.
أولا: الشعر الأندلسي:
مكانة الشِّعْر عند الأندلسيِّين.
كان الشِّعر على مرِّ العصور وسيلةً ترْفع صاحبها إلى أسمى مراتب الدَّولة، بغضِّ النَّظر عن عقيدة الشَّاعر ودينه، فقد نبغ عددٌ من الشُّعراء غير المسلمين.
من بيْنِهم شواعر مثل: قسمونة بنت إسماعيل، وحمدونة بنت زياد، ...ولم يكن لشيءٍ من ذلك أن يحدث لولا تسامُح سائر المجتمع وتجانُسٍ أرْسى أصوله بين الناس.
وقد حظِي الشِّعْر عند الأندلسيِّين بمكانة عظيمة، وكان للشُّعراء من ملوكهم وجاهة ولهم عليهم وظائف، والمجيدون منهم ينشدون في مجالس عظماء ملوكهم المختلفة، ويوقع لهم بالصلات على أقدارهم، وهو أمرٌ لم يكن مختلفًا كثيرًا عما كان للشُّعراء عند العرب.
فبلاد الأندلُس عُرفت بجمال مناظرها وأوْضاعها الطبيعيَّة الخلاَّبة، فأفاض الشُّعراء في التغنِّي بمناظرها.

وقال فيها الوزير ابن الحمارة الأندلسي:
لاحَتْ قُرَاهَا بَيْنَ خُضْرَةِ أيْكِهَا كَالدُّرِّ بَيْنَ زَبَرْجَدٍ مَكْنُون
وكذلك قول ابن سفر المريني متغنِّيًا بمشاهد الأندلس ومواطن الجمال فيها:
فِي أرْضِ أنْدَلُسٍ تَلْتَذُّ نَعْمَـــاءُ وَلا يُفَارِقُ فِيهَا القَلْبَ سَرَّاءُ
وَلَيْسَ فِي غَيْرِهَا بِالعَيْشِ مُنْتَفَعٌ وَلا تَقُومُ بِحَقِّ الأُنْسِ صَهْبَاءُ
ويقول في هذا الصدد لسان الدين بن الخطيب:
غِرْنَاطَةٌ مَا لَهَا نَظِـــيرٌ مَا مِصْرُ مَا الشَّامُ مَا العِرَاقُ
مَا هِيَ إلاَّ العَرُوسُ تُجْلَى وَتِلْكَ مِنْ جُمْـــلَةِ الصَّدَاقِ

ولعلَّ هذه الطبيعة هي التي غذّت فيهم الروح الموسيقيَّة المرحة التي حدت بهم إلى أن يتفنَّنوا في الأوزان الشعريَّة، فيضيفوا إلى ما هو معروف منْها أوزانًا في غاية الخفَّة والجمال، وتعد الموشحات خير دليل.
نشأة الشعر الأندلسي:
ظهر الشعر الأندلسي في ظروف مختلِفة عن مثيله في الشرق، ظروف تتَّصل بطبيعة الأندلس وتنوُّعها وجمالها، وأخرى متَّصلة بالتكوين الثقافي للسكَّان.
فلأوَّل مرة يلتقي الجنس العربي مع أجناس لاتينيَّة وقوطية وبربريَّة ويهوديَّة على أرض واحدة.

وتتعايش تحت سمائها الأدْيان السماوية الثلاثة: الإسلام واليهودية والمسيحيَّة.
فيسمع صوت المؤذن إلى جانب رنين أجراس الكنائس والبيَع، وتتحدَّث العربيَّة إلى جانب الأمازيغية، الإسبانية.
فنشأ من التعايش بين هذه الأديان والأجناس والثقافات واللغات جوٌّ خاص وحضارة فذَّة.
إنَّ السماحة التي ظلَّلت المجتمع الأندلُسي وبعده عن التعصُّب المقيت، لعِب دورًا كبيرًا في خلق التَّعايُش والتَّجانُس بين سكَّان الأندلس، كان أثره المباشر على الشِّعْر الأندلسي.
هذا؛ وقد برز منهم بعض الأعلام في ميادين الأدَب والثقافة مثل ابن المعز الإشبيلي.
الَّذي كان يكنى بأبي إسحاق، فقد كان شاعرًا مجيدًا ظهر في أيَّام المعتمد بن عبَّاد، ومن لطائف شعره قوله في كلبة صيد:

لَمْ أرَ مَلْهًى لِذِي اقْتِنَاص وَمَقْنَعَ الكَاسِبِ الحَرِيص
كَمِثْلِ خَطْلاءَ ذَاتِ جِـــيدٍ أغْيَدَ تِـــبْرِيَّةِ القَمِـــيص
كَالقَوْسِ فِي شَكْلِـهَا وَلَكِنْ تَنْفُذُ كَالسَّـــــهْمِ لِلقَنِيص

لَم يكن ظهور الشِّعر الأندلُسي المعبِّر عن البيئة نتيجة عمل فرْدٍ واحد، إنَّما هو عبارة عن ملامح نجِدُها لدى شُعراء كثيرين على نحْوٍ مُتفاوت فيما بينهم، وتزداد مع الأيَّام وضوحًا إلى أن أصبح الشِّعر الأندلسي مميَّز الخصائص والسِّمات.
الشَّيء الذي يدفع للقول بأنَّ اكتمال الشَّخصيَّة الشعرية الأندلسيَّة لم يؤدِّ إلى إثبات الوجدان الأندلسي المستقل فحسب؛ بل ساهم بشكْلٍ كبير في ظهور إبداع أندلسي أصيل شهِدته الأندلس، متمثِّلٍ في الموشَّحات والزَّجل، باعتبارهما فنَّين غير مسبوقين، كانا من ثمار التميز الأندلسي.
اتجه الشعر في الأندلس إلى ثلاثة اتجاهات:

1- الاتجاه المحافظ:

اتجاهات الشعر الأندلسي:
الذي يهتم بالموضوعات التقليدية ويتبع منهج القدماء في بناء القصيدة من حيث الأسلوب البدوي، حيث تحوي ألفاظه جزالة وعبارات لا تخلو من خشونة وحوشيّة، أما بحوره فطويلة وقوافيه غنائية، ويحتذي هذا الاتجاه نماذج المشرق.

2- الاتجاه المحدث:

وهو الاتجاه الذي حمل لواءه بالمشرق مسلم بن الوليد وأبو العتاهية وغيرهما، من دعاة التجديد، الذين ثاروا على الاتجاه المحافظ وطرقوا موضوعات جديدة بأسلوب متنوع.
خالفوا فيه طريقة القدماء في بناء القصيدة، وعَرفَت الأندلس هذا الاتجاه على يد عباس بن ناصح، حيث نقله من المشرق.
وتمثل الاتجاه المحدث في الأندلس باهتمامه بأغراض لم تكن قائمة بذاتها في القصيدة من قبل، فظهرت القصائد بأسلوب قصصي لا يخلو من روح الدعابة والسخرية.
أما صوره فتتألَّف من عناصر حضرية في لغة يسيرة الألفاظ وإيقاع يميل إلى البحور القصيرة والقوافي الرقيقة، ويعد الشاعر يحيى بن حكم الغزال من أشهر رواد هذا الاتجاه.

3- الاتجاه المحافظ الجديد:

الذي ظهر في المشرق بسبب تطرف الاتجاه المحدث ومن ثم هو محاولة لإعادة الشعر العربي إلى طبيعته وموروثه دون جمود أو بداوة.

وقد عمد هذا الاتجاه إلى الإفادة من رقي العقل العربي بما بَلَغَتْه الثقافة العربية الإسلامية من نهضة واسعة في مجتمع توفرت له أسباب الحضارة، ، وكان هذا الاتجاه محافظًا في منهج بناء القصيدة ولغتها وموسيقاها وقيمها وأخلاقها وروحها.
ولكنه مجدد في المضمون وفي معاني الشعر وصوره وأسلوبه، ويمثل أبو تمام والبحتري والمتنبي دعائم هذا الاتجاه في المشرق، وقد عرفت الأندلس هذا الاتجاه على يد نفر من الأندلسيين رحلوا للمشرق وعادوا للأندلس بأشعار البحتري وأبي تمام.
وكانت فترة الخلافة في ذروة نضجها، إذ كان المجتمع الأندلسي في هذه الفترة قد تجاوز الانبهار بالمستحدثات الحضارية التي بهرت شعراء القرن الثاني وأصبح أكثر استقراراً وتعقلاً.
ومن أعلام هذا الاتجاه ابن عبد ربه وابن هانئ والرمادي وغيرهم.
ويمكن تقسيم الفنون التي نظموا -أو قالوا- فيها الشعر الى ثلاث مجموعات:
الأولى مجموعة:
الأغراض التقليدية التي جاروا فيها شعراء المشرق وإن اختلفت طريقة التعبير فيها عندهم في بعض أجزائها وهذه الأغراض هي :
الغزل والمدح والفخر والرثاء والزهد والهجاء والمجون.....الخ.
المجموعة الثانية:
الأغراض التي لا تخرج عن كونها من الأغراض التقليدية أيضا ولكنهم توسعوا بالقول فيها، لوجود مقتضيات هذا التوسع ودواعيه في مجتمعهم وتتمثل هذه الأغراض في:
شعر الطبيعة ورثاء المدن والممالك.
والمجموعة الثالثة:
الفنون الشعرية المحدثة التي لم يُسْبَقوا إليها وهذه هي الموشحات والازجال والأغراض الشعرية المحدثة:شعر الاستغاثة او الاستنجاد والشعر التعليمي.
وكل فنون الشعر الاندلسي تجمع بينها سمات عامة مشتركة ثم ينفرد كل فن بعد ذلك بسمات خاصة تميزه وفقا لطبيعته.
فمن سمات الشعر الأندلسي العامة المشتركة:
غلبة الوصف الشعري والخيال عليه، والميل في طرائق التعبير الى الأساليب البيانية من تشبيه واستعارة وكناية والى بعض الأساليب البديعية كالطباق والمقابلة وحسن التعليل والمبالغة.
وإن كانوا يخرجون بها أحياناً الى الغلو وأغلب معانيهم تتسم بالجدة والطرافة أما الفاظهم فتتميز بالسهولة والوضوح والعذوبة وقلما يعثر الإنسان في شعرهم على لفظة حوشية غريبة أو لفظة تنبو عن الذوق أو تعاف الأذن صوتها..
وقد عالج شعراء الأندلس مختلف أغراض الشعر وإن تميزت بعض الأغراض باهتمام أكبر من غيرها، ويمثل الشعر أحد جوانب الحضارة العربية الأندلسية، فقد عبر عن قوالب تلك الحضارة وعن مضمونها وطبيعة الصراعات السياسية والتغيّرات الاجتماعية في الأندلس.
ومن أهم الأغراض الشعرية التقليدية بالأندلس:
١- الهجاء.٢- الغزل.٣- المدح.٤- الفخر.٥- الزهد.٦- الرثاء.
من أهم الأغراض التي عالجها الشعر الأندلسي، ومن أبرز الفنون التقليدية، يستهل به الشعراء قصائدهم، أو يأتون به مستقلاً وأوضح سماته:
<u>أولاً</u>:تلك الرقة في العواطف المعبّر عنها في رقة البيان.

وكان للحياة الأندلسية دور إيجابي في طبيعة شعر الغزل، فهو غزل حسّي يقف عند حدود الوصف المادي مستعيراً أوصاف المحبوب من البيئة حوله، وبالرغم من ذلك فهناك من اتخذوا الغزل العفيف مذهباً لهم.
شاع التغزل بالنصرانيات، وكثر ذكر الصلبان والرهبان والنساك.
كذلك شاع التشبيب بالشعر الأشقر بدلاً من الشعر الفاحم، وكما أن الشعراء جعلوا المرأة صورة من محاسن الطبيعة.
«إنهم إذا تغزلوا صاغوا من الورد خدوداً، ومن النرجس عيوناً، ومن الآس أصداغاً، ومن السفرجل نهوداً، ومن قصب السكر قدوداً، ومن قلوب اللوز وسرر التفاح مباسم، ومن ابنة العنب رضاباً».
فالغزل كان يعبر عن الحب الصادق، فلا مجال إلا لفارس عاشق أو عاشق فارس يُذكر بعنترة بن شداد.
ولعل أهل الأندلس كانوا يتمثلون عالم الآباء والأجداد، حيث الصحراء والكثبان والواحات وهم في عالم يبعد عن ذلك العالم، وكأنهم يستلهمون العالم المثالي.
وبالرغم من ذلك كان لهذا الاتجاه سماته الخاصة في الشعر الأندلسي، وقد جعلت تلك السمات لهذا الشعر ذاتية مستقلة وطبعت الملامح الأولى للشعر الأندلسي وميزته عن الشعر المشرقي.
ومن أشهر شعراء هذا الاتجاه عبد الرحمن الداخل وأبو المخشي والحكم بن هشام وعباس بن ناصح وغيرهم من شعراء الفترة الباكرة.
ولم يظهر المجون الذي يخلط فيه الجد بالهزل في عهد الدولة الأموية في الاندلس لسببين:
الأول: لانشغال الناس بالفتوح.
الثاني: لأن الوازع الديني كان قوياً في النفوس.
لكن منذ عصر ملوك الطوائف حتى نهاية حكم العرب في الأندلس.
اتخذ بعضهم المجون مادة شعرهم، وأفرطوا فيه إلى حد الاستهتار بالفرائض.
مع ظهورعدد غير قليل من الشعراء الذين نظموا في الزهد في القرن الخامس الهجري في ظل دول الطوائف، كأبي إسحق الإلبيري (ت٤٦٠هـ) وعلي بن إسماعيل القرشي.
وكان عصر الطوائف مجالاً لنشر الشعراء اشعارهم في مجالس الحكام والأمراء والمنتديات، وكان للغزل أثر بارز، ومن هؤلاء الشعراء ابن شهيد، وابن حزم، وابن زيدون، والمعتمد بن عباد، وقد لمع في هذا العصر نجم ابن زيدون الذي صدح بشعره الغزلي وساجلته في جزء منه ولادة بنت المستكفي.
اما في عصر المرابطين برع في الغزل الأعمى التطيلي، وابن خفاجة، وابن الزقاق البلنسي، كما برع في عصر الموحدين أبو جعفر (أحمد بن عبد الملك)، وحفصة الركونية.
كما أعطت الموشحات، الغزل نفحة خاصة، كالذي نجده في موشحات ابن خاتمة، ولسان الدين، وابن زمرك.
لم يختلف شعر المدح في الأندلس عنه في المشرق من جهة وفرة دواعيه وكثرة شعرائه فقد كانت الدولة الأموية مقصداً لشعراء الأندلس، حيث حافظ الشعراء على الأسلوب القديم، فاعتنوا بالاستهلال وحسن التخلص، وربما بدؤوا قصائدهم بوصف الخمر أو الطبيعة.
أو بلوم الزوجة زوجها لسفره للقاء الممدوح كما في شعر ابن درَّاج القسطلي (ت٤٢١هـ)، وهم لم يغرقوا في استعمال الغريب ما عدا ابن هانئ (ت٣٦٢هـ) الذي حاول تقليد المتنبي.
وظهر من شعراء الدولة الأموية في غرض المدح ابن عبد ربه الذي عاصر مدة الامارة الأموية وادرك اعلان الخلافة في قرطبة.

وقد اثنى المشارقة والأندلسيون على ابن دراج في شعره وفي ترسله (الذي ضاع)، وقال فيه ابن حيان أشهر مؤرخي الأندلس (ابو عمر بن دراج القسطلي سابق حلبة الشعراء العامريين وخاتمة محسني أهل الأندلس اجمعين).

واشتهر في مدح المرابطين الأعمى التطيلي، وابن خفاجة، ومن شعراء الموحدين ابن الأبّار، وحازم القرطاجنّي.

واستمر شعر المدح في عصر دولة بني الأحمر فكان من شعراء هذا الغرض في القرن السابع ابو البقاء الرُّندي.

وفي القرن الثامن جمهرة عظيمة منهم ابو الحسن بن الجيّاب ولسان الدين بن الخطيب وتلميذه ابن زَمْرَك الذي خلد شعره المدحي بنقشه في الحجر على جدران قصر الحمراء وأعمدته واقواسه وابهائه، وقد نظم شعرا وتوشيحاً.

وظهر في القرن التاسع ابن فركُون الذي زخر شعره بمعاني المرح التقليدية، ودارت معانيه حول معاني الجهاد ومباغتة العدو، والنيل من جنده، واحتياز البلاد الذي يسيطر عليها، مما يعطي النص الشعري خصوصية أخرى أندلسية.

ومن الشعراء الذي اشتهروا بالهجاء مؤمن بن سعيد (ت ٢٦٧هـ)، وقد رماه طول لسانه في السجن حتى مات فيه، وممن شارك في الهجاء محمد بن يحي الشهير بلقب القلفاط (ت ٣٠٢هـ) وكان صديقاً لابن عبد ربه.

ثم انقلبت الصداقة الى عدواة، واشتركا معا في الهجاء، في قضايا شخصية، او قضايا عامة، كالظلم والهزيمة في الحرب والخلل الاداري.

دخل الفخر الأندلس مع الوافدين والفاتحين لها، وحين ثارت العصبية بين العرب المولدين كثر شعر الفخر والهجاء، ومن شعراء العرب محمد بن سعيد الأسدين ومن شعراء المولدين العَبْلي.

وظهر في هذه الفترة سعيد بن جُودي، وابن حزم، وفي ملوك عصر الطوائف الأمراء عبد الملك بن هذيل تولى بعد ابيه الحكم سنة (٤٣٦هـ).

عرف الشعر الأندلسي غرض الزهد في جملة من الأغراض الشعرية المألوفة، وكان ابن أبي زَمنِين، من رجال القرن الرابع أحد الذين طرقوا هذا الفن، وكان شعر الزهد يتردد على قلة عند بعض الشعراء على وجه تلقائي غالباً، تقف وراءه خطرات الشعراء، وظروف الحياة بعد التقدم في السن.

وكان القرن الخامس الهجري في ظل دولة الطوائف منطلقا لعدد غير قليل من الشعراء لنظم شعر الزهد، كابي اسحاق الإلبيري.

وظروف القرن من النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية سمحت بمثل هذا الاستغراق في شعر الزهد، ومن الشعراء الذين مالوا الى القول في الزهد:

أبو القاسم السُّمَيْسر وكان زهده باللسان دون الاعتقاد به والاعتماد له مذهبا، لقد زهد شعره حين قصرت أحواله عن مطالبه.

وقد تكون الفلسفة – التقوى – مصدرا من مصادر الشعر الزهدي كالذي نجده عند ابن الحداد.

ومنهم من صدروا في شعرهم الزهدي عن قناعة ورأي وهي فئة العلماء الأتقياء العاملين بعلمهم ومنهم ابن الرّيوالي وأحمد الإقليشي، ومنهم اسماعيل الفهري القرشي، وكان أهل زمانه يشبهونه بابي العتاهية.

وإن كان الزهد دعوة إلى الانصراف عن ترف الحياة، فإن التصوف شظف وخشونة وانعزال عن الخلق في الخلوة إلى العبادة. ويتخذ الشعر الصوفي الرمز أداة للتعبير عن مضمونه وحقائقه.

ومن متصوفة الأندلس ابن عربي (ت٦٣٨هـ) وقد لقب «بمحيي الدين» و«بالشيخ الأكبر»، وابن سبعين (ت٦٦٩هـ) وكان يلقب «بقطب الدين».
لم يختلف رثاء شعراء الأندلس عن المشارقة، فكانوا يتفجعون على الميت، ويعظمون المصيبة، وكثيراً ما كانوا يبدؤون بالحكمة، كما صنع ابن عبد ربه (ت٣٢٨م). لكنهم أحدثوا فيه غرضاً جديدا كما سيأتي فيما بعد.

المحاضرة الخامسة

الشعر الأندلسي

عناصر المحاضرة:

أهم الأغراض الشعرية بالأندلس.
أغراض الشعر الأندلسي المتطورة.
أغراض الشعر الأندلسي المستحدثة.
فنون الشعر الأندلسي المستحدثة.
خصائص ومميزات الشعر الأندلسي.

لقد قال الأندلسيون شعراً في أغراض الشعر التقليدية المعروفة، كالغزل و المديح و الرثاء والهجاء والزهد والاستعطاف والتصوف والمجون، وغيرها من الأغراض التقليدية كما ذكرنا في المحاضرة السابقة، غير أن أهل الأندلس وسعوا القول في غرضين من أغراض الشعر هما:

وصف الطبيعة. رثاء المدن والممالك.

وصف الطبيعة:

ألهبت طبيعة الأندلس الجميلة قرائح الشعراء، فرسموا لوحات شعرية متنوعة أودعوها أخيلتهم وعواطفهم. مثلا:

رأى عبد الرحمن الداخل نخلة بالرصافة (شمالي قرطبة)، فلم يصفها في طولها ولا في التفافها ولا في ثمرها.

وإنما عقد بينه وبينها شبهاً في النوى والبعد عن الأهل. حيث أهاجت شجنه وذكرته بوطنه فيقول:

تَبَدَّتْ لنا وسط الرَّصافة نخـلةٌ تناءت بأرض الغرب عن وطن النخل
فقلت شبيهي في التغرُّبِ والنَّوى وطول التنائي عن بَنِيَّ وعن أهلي
نَشَأتِ بأرض أنت فيها غـريبةٌ فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي

ووصف ابن عبد ربه الطبيعة بمعناها العام المتمثل في الرياض وأزهارها فخلع على صياغته من نفسه ومهارته ما جعلها مصورة للبيئة الأندلسية أدق تصوير.

وقد ردد ابن حمديس (ت٥٢٧هـ) أصوات القدماء في الطبيعة كما ردد أصوات المحدثين.

ووصف الخيل والإبل والغيث والبرق، وأقحم عبارات امرئ القيس، ثم حاكى أبا نواس في الدعوة إلى نبذ الوقوف على الأطلال، ودعا إلى الشراب.

وكثيراً ما وصف ترحاله وتغربه عن صقلية التي أبعد عنها وهو حدث (٤٧١هـ) لما غزاها النورمان.

وهناك أيضا من تغنى بجمال الطبيعة الأندلسية، فابن سفر المريني يتعلق بالأندلس فيراها روضة الدنيا وما سواها صحراء.

وابن خفاجة الذي لقب بـ«الجنّان» وبـ«صنوبري الأندلس» يشبهها بالجنة فهو يقول:

يـا أهـل أندلس لله دركـــــم مـــاء وظل وأنهار وأشـــجار
مـا جنة الخلد إلا في دياركم ولـــو تخيرت هذي كنت أختار

ووصف الشعراء أقاليم الأندلس وربوعها وصفاً دقيقاً، فحمدة بنت زياد (من شواعر القرن الخامس الهجري) تصف وادي آش القريب من غرناطة فترسم أكثر من صورة متحركة.
وبدافع من التطور الحضاري أدخل الأندلسيون إلى قصورهم الماء ليملأ البرك في باحتها، ولينتشر من أفواه التماثيل.
أما وصف مجالس الأنس فقد بدأ ظاهرة اجتماعية في أخريات الدولة الأموية في الأندلس، ثم أخذت المجالس بالانتشار والشيوع ويغلب على هذا الشعر الارتجال، وفيه وصف للساقي والخمر.
كذلك رأى الشعراء الأندلسيون في المرأة صورة من محاسن الطبيعة، وقد ألح ابن زيدون في ديوانه على ثنائية ولادة والطبيعة.
وفي بعض أشعارهم ميل إلى النزعة القصصية، ومن ذلك قول جعفر بن عثمان المصحفي (ت٣٧٢هـ) في سفرجلة تتبع وصفها مذ كانت تختال على شجرتها إلى أن ذبلت في كف الشاعر.
ويغلب على الوصف في الشعر الأندلسي التشبيهات والاستعارات ويمثل لها بشعر ابن سهل (ت٦٤٩هـ)، فقد صور الشاعر الطبيعة فأحسن المزج بين الألوان، وجمع بين الحس المرهف، والملاحظة الدقيقة.
إن الشعراء قد أكثروا من وصف الطبيعة وعكسوها في شعرهم بصورة متميزة فكان أن تميز الشعر الاندلسي بخصائص يمكن إجمالها في الآتي:
كان من معالم هذا الوصف الاقبال على تصوير معالم البيئة الاندلسية المميزة وذلك بلأكثار من وصف الغدران والبحار والانهار والازهار والاشجار وكل ما وقعت عليه عين الشاعر الاندلسي بحكم ما موجود في تلك الطبيعة.
كان للزهر حيز كبير في الشعر الاندلسي يعدل ما كان له من شأن في حياة الاندلسيين عامة.
فقد دأب الشعراء على وصف الورد والياسمين والريحان والنيلوفر والنرجس غيرها.
وكان من مظاهر الوصف في الشعر الاندلسي الايغال في التصوير القائم على التزين والتلوين جريا على ما عرف به الاندلسيون من ميل الى الزخرفة والزينة.
وقد أدت تلك النزعة لدى بعض شعراء الطبيعة الى أكتضاض الصور بأشعارهم مستعملين التشبيه والاستعارة.
وهو تجربة إنسانية قل نظيرها في الأدب العربي لما اتصف به من حدة وحماسة، وجرأة في نقد المجتمع، ودعوة لاسترجاع ما ذهب.
لقد رثى المشارقة المدن التي استبيح حماها، كما صنع ابن الرومي حين رثى مدينة البصرة عندما أغار عليها الزنج سنة ٢٥٥هـ، لكن هذا اللون لم يظهر في الأدب المشرقي كما ظهر في الأدب الأندلسي فناً قائماً بذاته.
<u>الأول</u> هو رثاء المدن التي كانت عامرة فخربت أو ضاعت، ويمثل لـه بشعر أبي إسحق الألبيري يصف البيرة وما أصابها من دمار وخراب.
<u>أما الثاني</u> فرثاء الدويلات التي زالت في أثناء الحكم العربي في الأندلس وفيه يعدد الشعراء ما حل بأرباب نعمتهم من أسر أو قتل أو تشريد كما في رثاء ابن اللبانة (ت٥٠٧هـ) دولة بني عباد.
ورثاء ابن عبدون (ت٥٢٧هـ) دولة بني الأفطس في قصيدته الرائية «البسّامة».
<u>الاتجاه الثالث</u> فهو الشعر الذي نظمه أصحابه في رثاء المدن الضائعة مما سقط في يد العدو كما في قصيدة أبي البقاء الرندي (ت٦٨٤هـ).
التي <u>تتوزعها ثلاث فكر</u> هي الاعتبار بزوال الدول، وتصوير سقوط المدن، ثم دعوة المسلمين إلى الجهاد.

أما الأغراض التي استحدثوها:

شعر الاستغاثة:

ويقوم على استنهاض عزائم ملوك المغرب والمسلمين لنجدة إخوانهم في الأندلس أو التصدي للاجتياح الإسباني.

وقد أورد المقّري في نفح الطيب قصيدة ابن الأبَّار (ت٦٥٨هـ) التي استغاث فيها بسلطان تونس أبي زكريا الحفصي سنة ٦٣٦هـ ومطلعها:

أدرك بخيلك خيـل الله أندلسـا إن السـبيل إلى منجاتها درسـا

فاستوعبت معظم الاتجاهات والمعاني التي أتى بها شعراء الاستغاثة.

الشعر التعليمي:

ويراد به الأراجيز والمنظومات التاريخية والعلمية، وهو لا يلتقي مع الشعر الفني الذي يغلب عليه عنصرا الخيال والعاطفة إلا في صفة النظم، ويستقل في الرجز كل شطر بقافية.

من الأراجيز التاريخية أرجوزة يحيى ابن حكم الغزال (ت٢٥٠هـ) شاعر عبد الرحمن الثاني (الأوسط) وهي في فتح الأندلس.

وأرجوزة تمام بن عامر بن علقمة (ت٢٨٣هـ) في فتح الأندلس وتسمية ولاتها والخلفاء فيها ووصف حروبها، وأرجوزة ابن عبد ربه في مغازي عبد الرحمن الثالث.

وأرجوزة أبي طالب عبد الجبّار (القرن الخامس الهجري) وكان يلقبونه بالمتنبي وقد قصر شعره على الوصف والحرب والتاريخ.

وأرجوزة لسان الدين بن الخطيب (ت٧٧٦هـ) «رقم الحلل في نظم الدول» وهو تاريخ شعري للدولة الإسلامية في المشرق والأندلس، ويلي كل قصيدة شرحها.

ومن الأراجيز العلمية:

أرجوزة ابن عبد ربه في (العروض) وأرجوزة الشاطبي، القاسم بن فيّرة (ت٥٩٠هـ) في القراءات وعنوانها «حرز الأماني».

وألفية ابن مالك (ت بدمشق سنة ٦٧٢هـ) في النحو، وأرجوزة لسان الدين بن الخطيب المسماة «المعتمدة» في الأغذية المفردة.

وأرجوزة أبي بكر محمد بن عاصم (٨٢٩ هـ) في القضاء وعنوانها «تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام».

وتذكر في نطاق الشعر التعليمي منظومة حازم القرطاجني (ت٦٨٤هـ) وهي منظومة ميمية في النحو عدد أبياتها سبعة عشر ومئتان.

وبديعية ابن جابر الضرير (ت٧٨٠هـ) التي نظمها في مدح الرسول الأعظم (صلى الله عليه وسلم)، وضمنها نحو ستين فناً بديعياً، وسماها «الحلة السيرا في مدح خير الورى».

فنون الشعر الأندلسي المتطورة:

أحدث الأندلسيون فناً جديداً يتجاوب مع البيئة التي شاع فيها الغزل والشراب والغناء وهو الموشح الذي يعتمده أكثر من وزن وأكثر من قافية، فيعمد الوشاح فيه إلى ضرب من التنويع والافتنان العروضي.

الموشحات الأندلسية:

نشأ هذا الفن في القرن الثالث الهجري على يد رجلين من قرية قبرة بالاندلس هما: محمد بن حمود الضرير، ومقدم بن معافى، كما قال ابن بسام وابن خلدون.

وإن كان بعض الدارسين، ومنهم المستشرقان الإسبانيان خوليان ريبيرا Ribera وغارثيا غومث Garcia Gomez، يرون أن الموشح تقليد لشعر رومانسي كان الإسبان يتغنون به، وقد أبقوا منه الخرجة الأعجمية.

فالموشح يتألف من مطلع ومجموعة أدوار وخرجة، فالمطلع هو القفل الأول، أما الدور فيتألف من مجموع القفل والغصن.

ويأتي القفل على سمط أو اثنين أو أكثر، وكذلك الغصن، أما الخرجة فهي القفل الأخير من الموشحة.

نظم الموشح في الأغراض المختلفة، وظهرت أسماء لامعة لوشاحين كان أغلبهم شعراء من أمثال: أبي بكر عبادة بن ماء السماء (ت٤٢٢هـ)، وعبادة القزاز (ت٤٨٤هـ)، وابن اللبانة (ت٥٠٧هـ)، والأعمى التُّطيلي (ت٥٢٠هـ)، وابن زهير الحفيد (ت٥٩٥هـ)، وابن سهل الإشبيلي (ت٦٥٩هـ)، وأبي الحسن الششتري (ت٦٦٨هـ)، وأبي حيان الغرناطي (ت٧٤٥هـ)، ولسان الدين بن الخطيب (ت٧٧٦هـ)، وابن زمرك (ت٧٩٧هـ)، وابن عاصم الغرناطي.

ولما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس، نسجت العامة على منواله بلغة غير معربة قريبة إلى اللغة التي يتكلم بها الناس في مخاطباتهم اليومية ما سموه بالزجل.

وقد مرت الأزجال بأدوار متلاحقة أولها دور الأغنية الشعبية، ثم دور القصيدة الزجلية، واتسعت الأزجال لأغراض كثيرة كالمديح والغزل والتصوف والوصف.

ومن أشهر الزجالين ابن قزمان (٥٥٤هـ)، وله ديوان أزجال كبير ويخلف ابن راشد، وكان إمام الزجل قبل ابن قزمان، ومدغلّيس (أحمد ابن الحاج) الذي كان شاعراً وشاحاً، والششتري وقد برع في القصيدة والموشح، وهو أول من استخدم الزجل في التصوف كما استخدم محيي الدين بن عربي التوشيح فيه.

خصائص الشعر الأندلسي:

مر الشعر الأندلسي بأطوار ثلاثة:

فكان منذ الفتح حتى أوائل القرن الخامس الهجري يمثل شعر التقليد لأدب المشرق، ولم يكن التقليد عجزاً عن الابتكار، وإنما لشعور الانتماء إلى الأصل كشعر ابن عبد ربه، وابن هانئ وابن شهيد، وابن دراج القسطلي.

وفي القرن الخامس الهجري جمع الشعراء بين التجديد والأخذ بشيء من التقليد، ويمثل هذا التطور شعر ابن زيدون، وابن عمار، والمعتمد بن عباد، وابن الحداد، والأعمى التطيلي.

أما في القرن السادس الهجري وما بعده، فقد صور الشعراء بيئتهم، وبرزت العوامل الأندلسية الذاتية كما في شعر ابن حمديس، وابن عبدون، وابن خفاجة، وابن سهل، وأبي البقاء الرندي، وابن خاتمة الأنصاري.

ولسان الدين بن الخطيب، وابن زمرك، ويوسف الثالث ملك غرناطة، وابن فركون، و عبد الكريم القيسي البسطي.

لقد أولع الأندلسيون بكل ما هو شرقي، وفي هذا يقول ابن بسام (ت٥٤٢هـ): «إن أهل هذا الأفق – يعني الأندلس - أبوا إلا متابعة أهل المشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طن بأقصى الشام أو العراق ذباب. لجثوا على هذا صنماً، وتلوا ذلك كتاباً محكماً».

وبسبب هذه المحاكاة للمشارقة في أساليبهم ومعانيهم قيل للرصافي ابن رومي الأندلس، ولابن دراج متنبي المغرب، ولابن هانئ متنبي الأندلس، ولابن زيدون بحتري المغرب و الأندلس.

وكانت ظاهرة الانتقاء من التراث من خصائص الأدب الأندلسي، فكانوا يضمِّنون قصائدهم أقوال السابقين وأشعارهم وأمثالهم وما صادف هوى في نفوسهم.
كما لقي حب الجديد صدى مستحباً في نفوس الأندلسيين، فلم يتقيد أغلبهم بأساليب الأعراب ومعانيهم وأوصافهم، ولم تكن لغتهم محكمة كلغة المشارقة والأقدمين لبعد صقعهم عن البادية، ولوجود جيل لم يكن عربياً صرفاً، وقد نفروا من الألفاظ الوحشية إلى الألفاظ المأنوسة الرقيقة.
وكانت القافية الواحدة، وأوزان العروض الستة عشر ومثلها أكثر المعاني والأساليب المتوارثة قوام الشعر التقليدي في الأندلس.
و قد امتاز الشعر الأندلسي في مُجْمَلِه بالميزات التالية :
١ - الألفاظ و التراكيب: جاءت ألفاظ الشعر الأندلسي سهلة رقيقة عذبة، خالية من الغرابة والخشونة أما التراكيب فجاءت سلسة محكمة الصياغة بعيدة عن التعقيد، لا يظهر فيها أثر لغموض أو التواء أو خلل؛ لأنهم لم يُحمِّلوا التراكيب ما لا تطيق من المعاني المزدَحِمة، فجاء أكثر شعرهم جارياً مع الطبع، من غير تكلُّف أو تصنُّع.
٢ - المعاني و الأفكار: تتميز معاني الشعر الأندلسي بأنها واضحة جليَّة، بعيدة عن تعمُّق الفلاسفة وتدقيق الحكماء، لأنه لم يُقدَّر للأندلسيين أن يشتغلوا بعلوم الفلسفة والمنطق، لعدم تأثرهم بالترجمة والنقل من الثقافات الأخرى كما كانت الحال في المشرق.
كما تتميز معاني الشعر الأندلسي بالخُلُوِّ من المبالغة في طلب المعاني. وأخيراً فقد وُجد في الشعر الأندلسي كثير من المعاني المبتكرة، والأفكار المخترعة، التي لم يكن للشعر العربي عهد بها.
٣ - الصُّور و الأخيلة : أبْدَعَ الأندلسيون في هذا الجانب أيَّما إبداع، وكان لهم فيه الظهور والتفوُّق على غيرهم، فقد برعوا في التصوير، وأعْرَقُوا في التخيُّل وبلغوا فيهما شأواً بعيداً، حيث تعاطف الشعراء مع الطبيعة الخلاَّبة، و تجاوبوا مع الحضارة المترفة، و انعكس ذلك على شعرهم فأتوا بالتشبيهات الرائعة، والاستعارات الدقيقة، والتشخيص المُمْتِع، الذي يبثُّ الحركة والحياة في الجمادات وغيرها فإذا الأشجار تتكلَّم، والورود تبتسم، والأزهار تخجل، والبحار تَزْأَرُ.
و إذا المطر يَتَّخِذُ الروض صديقاً و صاحباً، والشمس تَمُدُّ ذِرَاعيها إلى الأرض، إلى غير ذلك من الصور الجميلة و الأخيلة اللطيفة ، التي ستظهر واضحة جليَّة فيما سيأتي من نماذج .
٤- الأوزان و القوافي : أكثر الأندلسيون من نظم الشعر في البحور الخفيفة القصيرة ، لتناسُبها مع حالة الترف و اللهو و حبِّ الغناء الذي انتشر في مجتمعهم ، فجاؤوا بمقطوعات رشيقة أنيقة ، حتى ضاقت أوزان العَرُوض عمَّا تَقْتَضِيه رِقَّة الحضارة و انتشار الغناء فاستحدثوا الموشحات ، التي سوف نتحدث عنها حديثاً مفصلاً .

المحاضرة السادسة

شعر رثاء المدن والممالك الزائلة
<u>عناصر المحاضرة:</u>
شعر رثاء المدن والممالك الزائلة.
الخصائص العامه لشعر رثاء الممالك الزائلة.
أولا: شعر رثاء المدن والممالك الزائلة:
اختلف الدارسون في مفهوم رثاء المدن والممالك :
الأول: من فرق بين رثاء المدن فأطلق هذا النوع من الرثاء على المدن التي سقطت في يد الاسبان واستلبت من يد المسلمين فبكاها الشعراء.

وأطلق الثاني: على دول ملوك الطوائف التي سقطت بدخول المرابطين الى الاندلس وما نظمه الشعراء من قصائد شعرية تأسى وتأسف على المجد الزائل والسيادة الآفلة لهؤلاء الملوك .
ويصح ان ينسحب هذا المفهوم على المدن التي سقطت وخزيت بسبب الفتن التي طرأت على الاندلس وفساد الاحوال السياسيه.

وقد اطلق الدارسون على هذا اللون من الشعر اسماء اخرى فسميّ بشعر النكبات والكوارث والشعر الحزين وسمّاه عبد الله كنون بالشعر الوطني وكذلك استقراه احد الباحثين وأطلق عليه الوطن في الشعر الاندلسي، وجاء في حديث (د. شوقي ضيف) وقد سمّاه (الرثاء) او ندب الدول والبلدان.
وقد نبغ شعراء الاندلس بهذا الموضوع الشعري حيث كان القرن الخامس الهجري أنفرط عقد الأندلس التي ضمتها الدولة الأموية الواحدة وصارت أندلسيات كثيرة؛ وتميزت هذه العصور بالصراع الذي أدّى الى سقوط مدن الاندلس وقد طبع هذا اللون من الشعر بطابع سياسي .
ودخل كثير من هذه الدويلات في خضومات في ما بينهم وكانت أحياناً خصومات عنيفة، اشتبكت فيها الأسلحة، وأريقت دماء.
ولاشك في أن هذه الحال اضعفت المسلمين في الأندلس، وأتاحت للعدو احتلال بعض المدن القريبة منه، وقد سجل الشعر هذه الكوارث، وقدم الشعراء رؤيتهم، واستنهضوا الهمم، ورفعوا صوت الاستغاثة.
وأسهم العلماء وأهل الحل والعقد في الأندلس في التوجه الى الدول الناشئة في المغرب لطلب المساعدة والعون، كما حدث مع دولة المرابطين في بداية الأمر كان للاستنجاد بهم، ثم كان لازالة الحكم القائم هناك ولكي تبقى تحت مظلة حكم واحد يجمع الأندلس والمغرب.
وقد سُجل هذا الموقف التاريخي، فكان في الأدباء والشعراء من نظر من زاوية الأمة في الوحدة، والقوة، وإبقاء رسم الجهاد.
وممن اثنى على صنيع المرابطين بغزو تلك الدول المفرِّطة، التي عرَّضت الأندلس كلها للخطر، وضيّعت من الأراضي والبلدان مالم يعوض: ابو الحسن بن الجّدّ قال قصيدة يمدح فيها ابن تاشفين وعرّض بملوك الطوائف:

أرى الملـوكَ أصـابتهم بأندلـس دوائرُ السُّـوءِ لاتُبـقي ولاتَذَرُ
كـيف يَشْـعُر مَنْ في كـفِّه قدحٌ يحْدُو به مُلهياه: الناي والوتر؟
ناموا وأسرى لهم تحت الدُّجى قدرٌ هوى بأنجمهم خَسْفاً وما شعروا

فهذه القصيدة تجمع بين ذم حكم الطوائف وبين مدح امير المسلمين يوسف بن تاشفين (زعيم المرابطين).
والشاعر يسوغ ماجرى لملوك تلك الدويلات وحكامها ويصفهم بصفات سلبية يثبت التاريخ أنها ثابته على كثير منهم، وقد أثنى على ابن تاشفين بصفات دينية ودنيوية، وقد أثنى المؤرخون بمثلها عليه.
فالشاعر وضع صفات أولئك القوم الفاسدة ووضعها الى جانب مزايا ذلك القائد المظفر فجاءت المفارقة واضحة صارخة.
وفي الشعر المشهور بيتان ينسبان الى ابن رشيق يصف فيها حال دول الطوائف بالأندلس، وهو وصف انتقادى لاذع يمثل رؤية أهل الفكر والرأي الى تلك الأحوال الصعبة؛ فيقول:

مما يزهّـدني في أرْض أندلسٍ ألقـابُ معتـمدٍ فـيها ومُعتـضد
القابُ مملكةٍ في غير مَوْضِعها كالهر يحكي اختيالاً صولة الأسدِ!

ونظم عدد من شعراء هذه المدة قصائد ومقطوعات تذكر ما اصاب دول الطوائف من الإزالة أو الإنهيار أو الاضطرار الى التسليم للسلطة الجديد.
فكان فيهم من نظر من زاوية زوال تلك الدول التي كان أكثرها يرعى الأدب والأدباء ويشجع الشعراء على المدح والثناء ويغدق عليهم العطايا، فنظم شعراً في زوال تلك الدول ورثائها، أو في مصائر أولئك الأمراء.
والبكاء على ما مضى من زمانهم، ووصف المتغير الجذري الذي طرأ على تلك المدن، والدول ومن وجهة نظر خاصة ضيقة؛ وإن تغلبت أحياناً بلمسات إنسانية، وأول مانذكر من هؤلاء الشعراء اميراً سقطت دولته.
وقتل بعض ابنائه ودخل في اسر المرابطين (حلفاء الأمس) ونفي عن اشبيلية الى أغمات بالمغرب وعاش بقية عمره اسيرا سجينا وعانى أهله معه معاناة شديدة: وهو المعتمد بن عباد.
ومن شعر المعتمد في اسره، يشكو حاله، وقد حل عيد الفطر سنة (٤٨٥هـ) قوله يخاطب نفسه في حوار داخلي يملؤه اليأس والحسرة، وهو يرى زوجته وبناته في تلك الحال البائسة؛ فيقول:
في ما مضى كنتَ بالأعياد مسروراً فجاءك العيدُ في اغمات ماسُورا
ترى بناتكَ في الأطــمارِ جــائعةً يغزلن للنّاس مايملكن قِطميرا
الأطمار جمع الطّمر: الثوب البالي، القطمير: الغشاء الرقيق الذي يغلف نواة الثمرة ويضرب به المثل في الشئ النزر الذي لاقيمة له.
والقصيدة تنضح أسىً وحسرة؛ والشاعر وإن ذكر مأساة نفسه؛ فقد اهتم قلبه لمأساة بناته وزوجته، فبعدما كان الآمر الناهي فصاير المأمور والمنهي، وهاهو يلاقي العيد في أسوأ حال، وأما بناته فقد قاسين العوز، ومشين حافيات، في حال ضعف وانكسار، وتجئ الأبيات ممزوجة بالحكمة التي علمته إياها تجربة الحياة المريرة.
ومن شعراء المعتمد الذي مدحوه وقت سلطته وعزه أبو بكر بن اللبانة، وكان ممن وَفوا للمعتمد، يزوره بين الفينة والفينة ويمدحه، وله قصائد في التفجع على مصير آل عباد ورثاء ايامهم منها، فيقول:
تبكي السماءُ بمــزن رائحٍ غادِ على البهالـيلِ من ابناء عــبادِ
على الجبال التي هُدّت قواعدها وكانت الأرضُ منهــم ذاتَ اوتادِ
وكعبةٍ كانت الآمــال تخــدمها فاليومَ لاعــاكفٌ فيها ولاباد
البهلول السيد الجامع لصفات الخير. العاكف: المقيم في البلد. البادي: الطارئ (الزائر، النازل)، (وفي البيت اقتباس من معنى ولفظ قرآني سورة الحج (٢٢-٢٥).
وتدور أبيات هذه القصيدة على عدد من المحاور التي يتجاوب بعضها مع بعضها الآخر من:
التفجع على ما اصاب بنى عباد جملة، والثناء عليهم كلهم فقد كانوا سادة كراماً.
الاشادة بالمعتمد بن عباد الذي قضي عليه بأن يتخلى عن سيفه وأن يترجل عن جواده.
التأسي بما أصاب العباسيين من مآسٍ ونكبات.
وصف لحظات هزيمة المعتمد، وصيرورته مع أهله أسرى ونقلهم..
الاستطراد ثانية الى الوداع بين آل المعتمد ودورهم وقصورهم، وتوديع الناس لهم بالدموع والزفرات.
وقد أوصل الشاعر رسالة الى القارئ والسامع من خلال المعاني المؤثرة والألفاظ الدالة والعاطفة القوية.

ومن شعراء هذا الاتجاه عبد الحميد بن عبدون الفهري، اشتهرت قصيدته التي رثى فيها بني الأفطس، فقد ضم المرابطون دويلة بني الافطس تحت رايتهم وقتلوا حاكمها عمر (المظفر) وولديه فرثاهم ابن عبدون.

ثم صار كاتبا عند المرابطين؛ وتبدأ قصيدته بقوله:

الدهر يفـــجعُ بعدَ العَـيْن بالأثر فما البكاءُ على الأشباح والصُّوَر؟
أنهاكَ أنهاكَ لا نهـــاكَ واحـدةً عن نَوْمةٍ بين ناب اللـــيث والظفر
فالدهر حربٌ وإن ابدى مسالمةً فالبيض والسّمر مثل البيض والسُّمر

وبعد عدة أبيات يبدأ الشاعر بضرب الأمثال من الدول والأمم والملوك الذين زالو وذهب زمانهم.

وقد اتّجه الشاعر الاندلسي في هذا النوع من الرثاء الى تسليم الامور الى الله تعالى والشكوى من سوء الحال والهرب من المدن الساقطة بعد البكاء والعويل وتارة يذهب الى استصراخ الملوك واستنهاض الهمم ويتجه كذلك الى ضمائر المسلمين .

وقد ظهرت فيه ايضا معالم لشخصية الاندلس وتفوق على الرثاء بصورة عامة، وتميّز كذلك عن قصائد رثاء المدن والممالك في المشرق.

لقد قدّر لهذا الشاعر (ابي البقاء الرندي) ان يشهد مأساة انحسار عزّ العرب عن معظم تراث الاندلس واحتضار امجادهم الغائبة وان عدّت المراثي في المدن الزائلة والممالك الآفلة فمرثية ابي البقاء تعد اشهرها وهي تقع في ثلاثة وأربعين بيتا ومطلعها:

ويقول:

لكلَ شيء اذا ما تمَ نقصان فلا يضر بطيب العيش انسان
وأين قرطـــبة دار العلوم فكـم من عالم قد سما فـــيها له شـــان
قواعـد كن أركـــان البـــلاد فما عسى البقاء إذا لـم تبـق أركـــان
حيث المساجد صارت كنائـس ما فيهـــن إلا نواقـــيس وصـــلبان

وبوسعنا أن نجمل مزايا مرثية أبي البقاء الرندي في أن مطلعها وما تلاه من أوائل الأبيات عبارة عن مجموعه من الحكم لاتكاد تخرج في جملتها عن فكره الاعتبار بمن مضى من الدول والملوك في سالف العهود.

والشاعر استطاع أن يلون عبارته مما جعلها طريقة، متمايزة باستعانته بتلك الحوادث التاريخيه التي استحضرها من أعماق التاريخ حيث بدت الأبيات بصوره عامه مكرورة المضمون.

ومن الطبيعي أن يبادر الشاعر بعد ذلك الى وصف ما ألمّ بالاندلس من شر وبلاء.

وان يعمد على مألوف رثاء الشعراء للمدائن والممالك الى ذكر البلدان المنكوبة لغزو الفرنجة وقد قام ابو البقاء – كأمثاله من الشعراء – على ابراز التضاد بينما كانت عليه البلاد وبين ما آلت اليه.

وفي اواخر القصيده يعمد الشاعر الى الاستنجاد والاستصراخ في اطار من مشاعر الأسى والمرارة، فهو يستصرخ اولئك الناعمين بالطمأنينة والراتعين بالدعة وراء البحر ولكن هيهات.

فالجميع قد اصموا اذانهم عن اغاثه ابناء عمومتهم دون ان تتحرك فيهم الحمية والنخوة. وفي ظل القهر والذل لم يعد بوسعه الانفلات من واقعه المتأزم لذلك نراه قد ساق أبياته بصوره مؤثره ثم لايلبث أن يعود ثانيه الى وصف مشاهد اخرى مؤثرة لذلك رأينا ان العاطفة كانت صادقه.

ولعل مرد هذا الى ان الشاعر قد شاهد تلك الاحوال وعاشها وهذا دليل على ان الصور التي ساقها وعبرت عن هذا الاثر صور من واقع المأساة فانبعثت على هذا النحو الشجي في شعره .

ثانياً: الخصائص العامه لشعر رثاء الممالك الزائلة:

لقد بدأ هذا الشعر مغايرا بعض الشيء لغرض الرثاء المعهود في اشعار العرب فهو نمط طريف يقل فيه الندب والنواح وذرف الدموع على حين ينطوي على اسى ومرارة وزن عميق.
ومن هنا قلت في رثاء المدن الاندلسيه حدة البكاء وحل محلها الجنوح الى التبصر في شؤون الدنيا وسنة الكون بعبارة مشفوعة بالتأسي .
فالشاعر في الحالتين يصف الطلول والخرائب ويحرص على ان يقارن بين سالف العهد المشرق وما حفل به من أيام السعد.
وبين تجهم الحاضر وإدبار الدنيا وتقلب الدهر مستدعيا في كثير من الاحيان احلى ذكريات الماضي .
ان الشاعر في هذا النوع من الرثاء لا يقتصر على التعبير عن مشاعر الذات بل يتعدى ذلك الى رصد عواطف الجماعه والتعبير عن ظاهرة الحزن الشامل من خلال النكبات العامه التي كانت تجتاح عامه الناس
ان المبنى الاسلوبي في هذا الشعر قد يبلغ في بعض الاحيان ذروة الاداء الفني وهو في اغلب نماذجه شعر جيد يتسم بتدفق العبارة وقرب المأخذ.
وان كان حظ معانيه من الابتكار ضئيلا فمضامينه في اغلب الاحوال معادة لكنها في مقابل ذلك بما يصبه الشاعر عليها من احاسيسه تبدو مفعمة بأصدق العواطف .
يمكن ان نلاحظ ان معظم الشعر الذي قيل في رثاء الممالك انما صدر بحكم المرحلة أي كان مجيئه في عهود الضعف والانحلال السياسي والركود الادبي اذ لم يكن ثمة داع لمعالجة مثل هذا اللون في عهد بني اميه ولا في عهد ملوك الطوائف وانما قد جاء في عهد المرابطين فالموحدين وما تلاهما بعد ذلك.

المحاضرة السابعة

شعر الاستنجاد واستنهاض الهمم

<u>عناصر المحاضرة:</u>

شعر الاستنجاد واستنهاض الهمم.
الطوابع العامة في شعر الاستنجاد واستنهاض الهمم.
ملاحظات فنية وأسلوبية شعر الاستنجاد واستنهاض الهمم.
أولا: شعر الاستنجاد واستنهاض الهمم.
يعنون له بعناوين متعددة: مثل الاستنفار، الاستصراخ، الاستغاثة:
ويراد به الشعر الذي نظمه شعراء الأندلس، وهو دعوة الى الجهاد والدفاع، هو أحد الأغراض الشعرية التي استحدثها شعراء الأندلس.
حيث يقوم على استنهاض عزائم ملوك المغرب في المحل الأول وهمم المسلمين في شتى أقطارهم كي يهبوا لنجدة اخوانهم من مسلمي الأندلس، ومد يد العون لهم في جهادهم ضد اعدائهم من نصارى الأندلس.
فسجلوا فيه الأحداث التاريخية التي جرت بين أهل الأندلس وبين الدول المعادية التي كانت تهاجم البلاد الأندلسية منفردة أو مجتمعة.
أو متحالفة مع بعض الجهات الأوربية، أو البابوية (في حملة صليبية مشابهة للحملة التي شنت على البلاد المشرقية).
كما وصفوا النكبات التي أصابت الأندلسيين من ويلات، فقد كانت الحملات على الأندلس أشبه بحملات الإبادة، تستأصل كل شئ.
ولم يكن العدو يقيم وزناً للمعاهدات والمواثيق وشروط التسليم التي تبرم، أو يستدرج أصحابها في المدن والقرى والقلاع والمعارك.

وكانت النساء يتعرضن للسبي والأطفال للبيع والشيوخ للقتل، ومن هنا كان وصف المآسي في هذا الشعر جزءاً متمماً لدعوات الشعراء المنادية بالإغاثة والعون واستدراك حال العرب والمسلمين.
فاستنهضوا الهمم، وتوسلوا الى ذلك بالقيم التي لايجوز أن تُهدر بين ابناء الأمة الواحدة، وظلت أعين الأدباء والشعراء موجهة الى العُدوة.
الى أهل المغرب الكبير، وسائر البلاد العربية والإسلامية التي تستطيع الإنجاد والإغاثة، يقول ابن الأبار للسلطان أبي زكريا بن أبي حفص:

نادتْكَ أندلس فلبِّ نداءَها واجعل طواغيتَ الصليب فراءَها
تلك الجزيرةُ لابقاءَ لها إذْ لم يضمن الفتحُ القريب بقاءَها

وهكذا يسترسل الشاعر في قصيدته مصوراً أحوال الأندلس حيناً ومستنجداً بسلطان تونس حينا آخر..
وظهر هذا النوع من الشعر ظهوراً واضحاً في عصر دول الطوائف حيث فقد أهل الأندلس مدنا ومواقع كثيرة، استرد المرابطون بعضها وضاع بعضها الآخر نهائياً (كضياع طليطلة سنة ٤٧٦هـ).
واشتد ظهور هذا النوع من الشعر في العهد الموحدي في أواخره حين ضعفت تلك الدولة.
وتوالت هزائمها وحصل ما يُعرف بالانهيار الكبير الذي فقد فيه الأندلسيون معظم البلاد عدا مملكة غرناطة التي قاومت الى سنة (٨٩٧هـ)، واستمر هذا النوع من الشعر الى آخر الزمان العربي في الأندلس.
وكان صوت الشعراء في هذا الموضوع صوتاً يصدر في معظمه عن وجدان الأمة.
وظروفها القاسية، ويصل بين أجزاء الأمة ويستنهض الهمم، ويدعو الى الأمة بالجهاد حتى لايضيع رسمه.
ولقد أدى الشاعر في هذا المقصد واجبه في التنبيه والنداء، ودق ناقوس الخطر، وتغطية الجانب الإعلامي في هذه القضية الخطيرة.
حيث تلونت أشعار الشعراء بحسب المواقف وخطورتها، وبحسب طبيعة الشاعر وحماسته، وأسلوبه الشخصي، ولكنها جميعا كانت:
مؤثرة، معبرة عن وجدان الأمة.
صادقة في توصيل الفكرة، وبلوغ المقصد.
على جانب من الحماسة والانفعال.

ثانياً: الطوابع العامة في شعر الاستنجاد واستنهاض الهمم:

١- الحماسة:

ونعني بها تلك الحرارة وذلك العنف الذي نحسه في ثنايا شعر الشاعر، ونجد الحماسة باديةً في الدعوة الى الجهاد وإنقاذ الأندلس.
وفي وصف ماكان يجري من سقوط المدن وضياع الديار، وفي تصوير المآسي من قتل وسبي وتشريد، ومنه قول ابن الأبار:

أدرك بخيلكَ خيلَ الله أندلُسا إنّ السبيل الى منجاتها درَسا

٢- تردد الشعراء بين اليأس والأمل:

نجد أن الشاعر في القصيدة الواحدة يغرق في الياس وتسودَّ أمامه أيام المستقبل.
ثم نجده يندفع مع الأمل ثانية؛ ولكن هذا الأمل لم يكن ليعدو الأماني، لأنه حينما يتحدث عن المآسي يتحدث عن شئ وقع.
وحينما يصدر شعره عن الأمل فإنما يصدر عن شئ يتمنى أن يكون؛ ولهذا نجد الشاعر يغلب عليه اليأس وإن لم يغادر الأمل.

٣- جرأة النقد الاجتماعي:

ونعنى بذلك محاولة الأديب أن يضع يده على ما يظنه هو موضع الداء؛ في محاولة منه لوصف الدواء، لأن الشاعر ذو اثر توجيهي اجتماعي؛

فمهمته القيام بدور الخطيب، وبذلك لم يعد الشعر مجرد تعبير عن الشعور الذاتي، بل اصبح ذا أثر توجيهي نقدي يهدف الى تحقيق غرض مقصود.

٤- الميل الى الحكمة:

نلاحظ في هذا الغرض ميلاً شديداً عند الشعراء والكتاب الى شئ من الحكمة نلمح محاولاتهم البسيطة للدخول فيما يمكن ان نسميه تفلسفاً، ونعني به تلك الحكم والاراء التي تهدف كلها الى الحديث عن حتمية التاريخ، وأن العظيم إن تعاظم سياتي عليه يوم تزول فيه عظمته.

٥- ضراعة الشعر:

مما يشيع في الضرب من الأدب ضراعة الشعراء الى الله تعالى، ولم يجدوا في تلك الأوقات العصيبة التي عانوا منها الويلات مفراً إلا الدعاء وطلب الصبر والسلوان، وان يكون الله عوناً لهم على أعدائهم، وهذا يتصل بالرغبة لإنقاذ ما تبقى.

٦- العاطفة الحزينة في الشاعر:

يشعر الدارس لهذا الأدب أن أولئك الشعراء يصدرون عن عاطفة أسى عميق، ويظهر الحزن في ثنايا القصائد، ويلف الأبيات جو قاتم من الجزع.

ثالثاً: ملاحظات فنية وأسلوبية في هذا الشعر:

نجد هذا الشعر متوزعا في اتجاهين:

١- نقع في بعضه على أدب مدروس، أي صادر عن رويّة وفكر وتأنٍّ، ونراه مصوغاً بصياغة ملائمة لأدب العصر وفيه خصائص العصر أيضاً.

٢- البعض الاخر كان متأثراً لحماسته، فنجد أن الشاعر في هذا النوع قد انفعل انفعالاً شديداً لحادثة ما، فإذا به يسرع الى تسجيل انطباعه، أو أن تكون عاطفة الشاعر أشد من أن يستعمل فكره وحده فإذا به يصدر شعراً تغلب عليه العاطفة دون الرويّة.

ولهذا نجد عددا من القصائد التي يبرز فيها بوضوح عنصر الحماسة من غضبة لسقوط مدينة أو رغبة في استردادها.

ويتميز هذا النوع من الشعر بالبساطة والسهولة في معانيه، وتتلاحق جُمَلُه وعباراته مسرعة لتقترب في كثير من الأحيان من المنثور.

ونلاحظ ظهور الأفكار بشكل واضح دون عناء أو غوص بعيد وراء الفكرة، أو طلب للصور البعيدة الغريبة.

لأن هذا الشعر اصلاً هو وليد الانفعال والأحاسيس العارمة التي تجتاح الشاعر، وفي مثل هذه الحال تغلب العاطفة.

وتكون العنصر السائد سواء كان الشعر وليد الارتجال والبديهة ام كان بعد الأناة والرويّة، ويتبع البساطة في الصياغة قرب المعاني.

وتنوع الأساليب التي تميل الى شئ من الأناقة والجمال وعرض القضايا عرضا يتناسب والقضية المتداولة.

ويميل معظم هذا الشعر الى الابتعاد عن التصوير والصنعة اللفظية إلا في القليل النادر، ونلاحظ غالباً سيادة عنصر العاطفة الجياشة، والانفعال الصادق.

وعدم ضعف هذا العنصر النفسي من أول القصيدة الى آخرها، ولا نبالغ إذا قلنا إن أبرز العناصر في هذا الموضوع هو العاطفة، أو تلك الحماسة التي تغلب على الشاعر فتجعله أكثر صدقاً وأقرب معاني واسهل الفاظاً.

من مميزات شعر الاستنجاد:

كان مؤثرا معبرا عن وجدان الأمة.

صادقا في توصيل الفكرة وبلوغ القصد.

على جانب من الحماسة والانفعال.

ونشير إلى أن شعر الاستنجاد بالاضافة لما أحدثه من أثر في الواقع السياسي، فقد كان له ردُّ فعل إيجابي على المستوى الأدبي.

إذ أخذ شعراء البلاد يجيبون عن تلك القصائد بالروي والوزن نفسيهما، ويحرصون على أن تكون إجاباتهم مطمئنة، وأنّ النجدة في طريقها إليهم.

وقد لجأ بعضهم إلى تضخيم الإحساس بالخسارة، وما ينتج عن ذلك من لوعة تبرر ما سيذهب إليهِ من إثارة العواطف وحفز الهمم في سبيل العودة.

ومنها ما يقوم على الحيرة والذهول ورفض الواقع الجديد الذي حدث، فيمزج الشاعر تلك المعاني بإحساسهِ بالهزيمة، حيث يستطيع تجسيد حنينهِ أكثر مما تجسّد أمله بالعودة، وقد يعمد الشاعر إلى تلخيص المأساة في نهاية القصيدة.

حيث يأتي البيت الأخير تجسيدًا للغرض الذي من أجلهِ أنشأ قصيدته كما جاء في نهاية قصيدة أبي البقاء الرندي، حيث يصوّر حالة الضعف الذي وصل إليها مواطنوه:

لِمِثل هذا يذوبُ القلبُ من كمدٍ إنْ كان في القلب إسلامٌ وإيمانُ

ونستطيع أن نقول:

إنّ هذه الأشعارَ عبّرت عن صراع البقاء، حيث أدّى ذلك إلى صدور عددٍ كبير من الرسائل والقصائد التي تصوّر هذا الصراع مثل رسائل الاستنجاد ورثاء المدن، وقد تلوّنت معظم الموضوعات الأدبية باللون العسكري والسياسي.

حتى لنجد معظم النقوشات الشعرية والنثرية على جدران قصر الحمراء وأبوابه مستمدّه كلّها من أجواء الصراع مع الأسبان.

لذلك لا نستغرب أن نجد عناوين مؤلفات فيها مصطلحات عسكرية مثل الكتيبة الكامنة للسان الدين بن الخطيب.

المحاضرة الثامنة

الموشحات والأزجال الأندلسية

<u>عناصر المحاضرة:</u>

نشأة وتعريف الموشحات.

مصطلحات الموشح.

الأزجال.

أولاً: الموشح

هو فن جديد يتجاوب مع البيئة الأندلسية التي شاع فيها الغزل والشراب والغناء، ويعتمد أكثر من وزن وأكثر من قافية، فيعمد الوشاح فيه إلى ضرب من التنويع والافتنان العروضي.

نشأ هذا الفن في القرن الثالث الهجري على يد رجلين من قرية قبرة بالأندلس هما: محمد بن حمود الضرير، ومقدم بن معافى، كما قال ابن بسام وابن خلدون.
وإن كان بعض الدارسين، ومنهم المستشرقان الإسبانيان خوليان ريبيرا وغارثيا غومث، يرون أن الموشح تقليد لشعر رومانسي كان الإسبان يتغنون به.
فالموشح أحد الأجناس الأدبية التي تنتمي إلى الشعر العربي الغنائي وهو في الأرجح فن أندلسي خالص.
وهو كلام منظوم على وزن مخصوص، وهو يتألف في الأكثر من ستة أقفال وخمسة أبيات، ويقالُ له التام، وفي الأقل من خمسة أقفال، وخمسة أبيات، ويقال له الأقرع.
فالتام ما ابتُدىء فيه بـ(الأقفال)، والأقرع ما ابتُدىء بـ (الأبيات)، وهذا التعريف به مصطلحات جديدة على الأدب العربي.
وربما قصد بالوزن المخصوص الخروج على الأوزان الخليلية التقليدية المعروفة وتداخل بعض الأوزان في الموشحة ما بين الأقفال والأبيات.
والرأي الذي يكاد يجمع عليه الأدباء والنقاد ومؤرخو الأدب أن للموشحة هو:
منظومة غنائية لاتسير في موسيقاها على المنهج التقليدي للقصيدة العمودية الملتزمة لوحدة الوزن ورتابة القافية ، وإنما تعتمد على منهج تجديدي متحرر نوعاً ما بحيث يتغير الوزن وتعدد القافية ، ولكن مع التزام التقابل بين الأجزاء المتماثلة.
فالموشح إذن وضع للغناء، ويتشابه شعر التروبادور مع الموشحات في طريقة الغناء حيث الغناء الفردي، ويفترقان في الغناء الجماعي للموشحات، حيث يؤدى المنشد المطلع ثم يردده الكورس ثم يمضي المنشد في إنشاد البيت الأول من الموشح بعد ذلك ثم يردد الكورس المطلع.
وقد تداخلت مصطلحات كثيرة في بنية الموشحة كما يوضحه الشكل التالي:

ثانيا: مصطلحات الموشح:
1-المطلع:
وهو القفل الأول من أقفال الموشحة التامة، وهو ليس ضرورياً، وقد أسماه الدكتور حفني ناصف (لازمة) وأسماه الدكتور رضا الفاخوري (لازمة أو سمطاً) وأسماه الدكتور سليمان العطار (القفل صفر)، واتفق أكثر النقاد والكتاب على تسميته (المطلع).
وهذه التسمية للمطلع استعيرت من القصيدة العربية التقليدية ، حيث يطلق على البيت الأول منها، ولا تخلو قصيدة من المطلع إلا في النادر القليل.
ونسبة الموشحات التامة أكثر من نسبة الموشحات القرعاء في ورودها، كما أن المطلع يحافظ على وحدة النغم، وانضباط الإيقاع فهو على رأس الموشح مثل الشَّعر على رأس الإنسان، وخلو الرأس منه يجعل صاحبه (أقرعاً).
ويرى الدكتور سليمان العطار أنه"ينبغي أن يحل محل تكرار المطلع لازمة قرع شديد على الطبل، أو على الأوتار ليصل اللحن إلى قمة حدته أي باستعمال الوتر الخامس للعود أو الدق أو الضرب المناسب على آلة أخرى".

لذا فالمطلع كان سيحظى بالجانب الأكبر من اهتمام الملحنين والمغنيين.

٢- البيت:

وهو الذي يلي المطلع في الموشح التام، أو الذي يبدأ به الموشح الأقرع، وعرف ابن سناء الملك الأبيات بأنها:

أجزاء مؤلفة مفردة أو مركبة يلزم في كل بيت منها أن يكون متفقاً مع بقية أبيات الموشح في وزنها وعدد أجزائها لا في قوافيها، بل يحسن أن تكون قوافي كل بيت منها مخالفة لقوافي البيت الآخر.

وهذا التعريف ورد صريحاً في كتاب الطراز، وعلى هذا يعتبر البيت (كل ما بين قفلين).

وعلى الرغم من ذلك أسماه الأبشيهي بالدور:

وقد استخدم لفظة (الدور) في مقابل (البيت).

والبيت في الموشحة يختلف عن البيت في القصيدة ، وإن كان المصطلح واحداً، فالبيت في القصيدة يتكون من شطرين متساويين وقافية ثابتة في القصيدة كلها،على عكس ذلك في الموشحة حيث يتكون البيت من أجزاء مفردة وأجزاء مركبة مختلفة في التقفية.

وهذا الاختلاف في التقفية التجديدية والتنوع أعطى إيقاعاً جديداً غير منتظر على عكس البيت في القصيدة، فالإيقاع فيه منتظر بل ومتوقع في كثير من القصائد، والجزء من البيت يسمى (غصناً).

والأغصان المفردة يجب أن تكون متساوية وقد يأتي البيت مركباً من أغصان متساوية أو غير مساوية تختلف حسب الإيقاع الذي يختاره الوشاح..

وتكرر هذه الصورة في الموشحة على الأقل خمس مرات وقد تتفق التقفية الداخلية مع الخارجية أو لا.

والأقفال هي أجزاء مؤلفة يلزم أن يكون كل قفل منها متفقاً مع بقيتها في وزنها وقوافيها وعدد أجزائها، وأقل ما يتركب القفل من جزأين فصاعداً.

وهذا المصطلح (القفل) ورد صريحاً في دار الطراز لذا لم نجد اختلافاً طويلاً حول هذا المصطلح.

والقفل هو الذي يقفل به الإيقاع ويأتي إيقاع جديد غيره، وأتت صور الأقفال متعددة كما تعددت الأبيات، والجزء من القفل يسمى (سمطاً) وهناك من أسماه غصناً.

4- الدور:

وهو البيت مع القفل الذي يليه، وسمي بذلك لأنه يدور بانتظام في الموشحة، وعلى وزن ثابت متكرر في الموشحة كلها، وقد أسماه الدكتور جودت الركابي (سمطاً).

وكأن الدور يأتي على إيقاعين ثابتين متكررين إيقاع البيت، وإيقاع القفل.

٥- الخرجة:

وهى القفل الأخير في الموشحة والشرط فيها أن تكون حجاجية من قبل السخف، قزمانية من قبل اللحن، حارة محرقة ، حادة منضجة، من ألفاظ العامة.

والمشروع بل المفروض في الخرجة أن يجعل الخروج إليها وثباً واستطراداً، وقولاً مستعاراً على بعض الألسنة ... والخرجة هي إبراز الموشح مسكه وعنبره، وهي العاقبة، وينبغي أن تكون حميدة.

والخاتمة بل السابقة وإن كانت الأخيرة ، وقولي السابقة فإنها هي التي ينبغي أن يسبق الخاطر إليها ، ويعملها من ينظم الموشح في الأول، وقبل أن يتقيد بوزن أو قافية.

وعلى هذا تعد الخرجة هى حجر الزاوية في الموشحة ، وكما قال عنها ابن بسام أثناء حديثه عن الوشاح الأول بأنه: "كان يأخذ اللفظ العامي أو العجمي ، ويضع عليه الموشحة ، دون تضمين فيها ولا (أغصان)."

وتنوعت الخرجة ما بين (عامية وأعجمية ومعربة) وقد تأتي خليطاً بحيث تجمع بين العامية والفصحى، أو الفصحى والأعجمية، والمتحكم في الخرجة هو ذوق الوشاح وظروف البيئة التي يعيش فيها .

وتختلف بنية كل جزء من الأجزاء السابقة حسب بناء كل موشحة على حدة.

ونمثل لهذه الأجزاء بالموشحة التالية .. للسان الدين الخطيب التى يقول فيها:

يا حَادِي الجِمَالْ عَرْج عَلَى سَلَا قدْ هَامَ بالجَمَال قَلْبي وَمَا سَلَا
في المَنْظَرِ البَهِيج بالبيض كَالدُّمَى
عَرجَ عَلَى الخَلِيج والرَّمْلِ والحِمَى
والأبْطَحِ النَّسِيج مِنْ صَنْعَةِ السَّمَا
لِلهِ مِنْ خِلَال تَخْتَالُ فِي حُلَى لَمْ تُلْفِ فِي اعْتِدَالْ عَنْهُنَّ مَعْدِلا
وَطْفْ مِنَ الرِّباطِ برُكْنِ طَائِفِ
بمَنْزِلِ اعْتِبَـــاطِ دَارِ الخَلَائِفِ
مُقَدَّسِ المَوَاطِي جَمَّ المَعَارِفِ
كَمْ مِنْ هِلَال بأفْقِهِ انجَلَى أنْحى عَلَى الضَّلَال فانْجَاب وانْجَلَى
جَنَى النَّعِيم دَانٍ والبَحْرُ والغَدِيرْ
أهِلَّةُ الشَّـــوَاني في أفقِهِ تسِيرْ
وقَهْوَةُ الدِّنَانِ يُدِيرُها مُدِير
أغَرّ كالغَزَال مُقَلَّدُ الطُّلَا يَسْطُو ولا يُبَالِي بالأُسْدِ في الفَلَا
أوْلَى إليْكَ أوْلَى مِنْ ذِكْرِ مَعْهَد
أكْثَرْتَ فيه قوْلا فِي كُلّ مَشْهَدِ
خُذْ في امْتِدَاحِ مَوْلَى نَدْبٍ مُؤيَّد
مُمَجَّدِ الجَلَال مَشْهَرِ العُلا قد فاقَ في كَمَالِ وَرَاقَ مُجْتَلَى
مُوافِقُ الخَلِيلِ في الإسْمِ والسِّمَاتِ
ذِي المَنْظَرِ الجَمِيلِ الرَّائقِ الصِّفَاتِ
مُكَرِّمِ الدَّخِيلِ ومُجْزِلِ الهِباتِ

ومُحسِبُ النّوَالِ لِمَنْ تَوَسَّلَا وَرَافِعُ المَعَالِي سُحْبَاً مُضَلَّلا
يامَنْ عُلاهُ دَرَّتْ بِكُلِّ نـــــــائلِ
خُذْهَا إليكَ جَرَّتْ ذَيْلَ الخَمَائلِ
وفي حُلاكَ أزْرَتْ بِقَوْلِ قائلِ
يامَنزِلَ الغَزالِ حُيِّيتَ مَنْزِلاً فما أرَى بسال عَنْه وإنْ سَلا
الموشحة تامة، وتتكون من ستة أقفال مركبة من أربعة أجزاء.
المطلع: في الموشحة السابقة هو ..
يا حَادِي الجِمَالْ عَرْج عَلَى سَلَا قدْ هَامَ بالجَمَال قلْبي وَمَا سَلَا

البيت: في الموشحة هو: عَرجَ عَلَى الخَلِيج والرَّمْلِ والحِمَى
في المَنْظَرِ البَهِيج بالبيضِ كَالدُّمَى
والأبْطَحِ النَّسِيج مِنْ صَنْعَةِ السَّمَا
ويشترط في البيت أن يتفق في عدد الأجزاء ويختلف في التقفية من بيت إلى آخر (م - ف - ر - د - ت - ل) إذ يحسن في كل بيت أن يستقل بقافية مغايرة عن البيت الآخر، والبيت في الموشحة السابقة مركب من فقرتين وجزأين.
وكل جزء من البيت يسمى غصناً وأطلق ابن سناء الملك على كل جزء غصنًا، أما ابن خلدون فقال : "ويشتمل كل بيت على أغصان"، وعلى هذا يكون البيت مكوناً من أغصان متساوية متفقة في التقفية.
مثال من الموشح السابق:
يامَنْ عُلاهُ دَرَّتْ بِكُلِّ نـــائلِ
خُذْهَا إليكَ جَرَّتْ ذَيْلَ الخَمَائلِ
وفي حُلاكَ أزْرَتْ بِقَوْلِ قائلِ
القُفْلُ: في الموشحة هو:
لِلهِ مِنْ خِلَال تَخْتَالُ فِي حُلى لَمْ تُلْفِ فِي اعْتِدَالْ عَنْهُنَّ مَعْدِلا
ويشترط في القفل أن يتفق مع بقية الأقفال في وزنها وقوافيها وعدد أجزائها، والقفل السابق مركب من أربعة أجزاء كما يلي..
(لِلهِ مِنْ خِلَال + تَخْتَالُ فِي حُلى + لَمْ تُلْفِ فِي اعْتِدَالْ + عَنْهُنَّ مَعْدِلا)
والقفل الذي يليه في الموشحة مكون من:
(كَمْ مِنْ هِلال + بأفْقِهِ انجَلَى + أنْحى عَلَى الضَّلال + فانْجَاب وانْجَلى)
وهكذا الى آخر الموشحة.
وكل جزء من القفل يسمى سمطاً، وعلى هذا تتفق أقفال الموشحة كلها في عدد الأجزاء، والوزن، والتقفية الخارجية.
الدور : وهو البيت مع القفل الذي يليه، ولم يذكره ابن سيناء الملك في كتابة (دار الطراز)، وهو في الموشح السابق:
لِلهِ مِنْ خِلَال تَخْتَالُ فِي حُلى لَمْ تُلْفِ فِي اعْتِدَالْ عَنْهُنَّ مَعْدِلا
وَطْفْ مِنَ الرِّباطِ برُكْنِ طائِفِ
بمَنْزِلِ اعْتِبَـــاطِ دَارِ الخَلَائِفِ
مُقَدَّسِ المَوَاطِي جَمَّ المَعَارِفِ

وهذا الدور يدور في الموشحة خمس مرات على الأقل ، ويبدأ في كل مرة بتقنين مختلفة عن السابقة ، وينتهي بتقفية ثابتة حتى الخرجة.
الخرجة: وهى القفل الأخير من الموشحة، وعليها يبنى الوشاح موشحته لأنها تعتبر حجر الزاوية لبناء الموشحة، ومقامها عند الوشاحين مقام المطلع في القصيدة عند الشعراء، يخصونها بعناية فائقة ويحسبون لها حساباً كبيراً.
ورأى ابن سناء الملك أن تكون ألفاظها ماجنة كاشفة فاضحة، أما معانيها فتكون على لسان الفتاة فهى التي تعبر عن ولعها وشغفها بالفتى وتشتكي إلى أمها.
ومن المفروض أن يكون البيت السابق على الخرجة متضمناً كلمة (قال) أو (قلت) أو (غنى) أو (غنت) .. والخرجة في الموشحة السابقة هى:
يامَنزلَ الغَزالِ حُيِّيتَ مَنْزِلاً فما أرَى بسال عَنْه وإنْ سَلا
وأتت الخرجة في الموشحات متفاوتة من موشح لآخر ، وليس هناك قيد على الوشاحين في اختيارها فقد تأتي أعجمية أو عامية، أو فاحشة ماجنة كاشفة فاضحة أو معربة، أو مقتبسة...
ونلاحظ - أيضاً - أن بعض هذه الخرجات تمتاز بنوع من البساطة حتى لتشبه حديثاً عادياً يومياً إذا قيست بالموشحة نفسها.
ثالثا: الزجل
هو الموشَّح المنظوم باللغة العاميَّة، فحين انتشرت الموشَّحات عند الطبقة المثقَّفة، نسجت الطبقة العاميَّة على سليقتها الأزْجال، التي كانت تؤدَّى مصحوبة بالموسيقى، ونظمت دون التِزام بقافية أو وزن. وفي هذا الصَّدد أورد ابن خلدون في المقدّمة:
"لما شاع فنُّ التَّوشيح في أهل الأندلس، وأخذ به الجمهور؛ لسلاستِه وتنميق كلامِه وترصيع أجزائه - نسجت العامَّة من أهل الأمصار على منوالِه، ونظموا في طريقتهم بلُغتهم الحضريَّة من غير أن يلتزموا فيه إعرابًا، واستحدثوا فنًّا سمَّوه بالزَّجل، والتزموا النَّظم فيه على مناحيهم إلى هذا العهْد، فجاؤوا فيه بالغرائب، واتَّسع فيه للبلاغة مجال، بحسب لُغَتِهم المستعجمة."
وكان أوَّل مبتكر للزَّجل هو أبو بكر بن قزمان، وقال عنه ابن سعيد: "رأيتُ أزْجالَه مرويَّة ببغداد أكثر مما رأيتُها بحواضر المغرب"، وبذلك انتقل هذا الزَّجل كما انتقلت الموشَّحات إلى المشرق، واستخدمتْه الأقاليم في آدابها الشعبيَّة.
ومن الزجَّالين الكبار في الأندلس نذكر أحمد بن الحاج المعروف بمدغليس، ويَعْتَبره الأندلسيُّون خليفة ابن قزمان.
ويجعلون مكانته في الزَّجل شبيهة بمكانة ابن تمام في الشِّعْر، وهناك أيضًا على سبيل المثال لا الحصر : ابن غزلة، وابن جحدر الإشبيلي، وأبو عمر الزَّاهد، والحسن بن أبي الدباغ، وغيرهم.
ويؤْثر عن أبي الدباغ حبُّه الشَّديد للزَّجل إنشاءً وجمعًا، فكانت له أزْجال في الهجاء، وله يرجع الفضل في جمع مختارات الزجَّالين في مجموعتين:
سمَّى الأولى بـ: "مختار ما للزَّجَّالين المطبوعين" والثانية بـ: "ملح الزجَّالين."
والشَّائع في هذا الفن أن تأتي الأزْجال بأربعة مصاريع، يلتزم الرَّابع منها رويًّا واحدًا في القصيدة، وأمَّا الثَّلاثة فتكون على قافية واحدة، وتسمَّى بـ: "القراديات."

المحاضرة التاسعة

النثر في الأندلس
عناصر المحاضرة:
تأثر النثر الأندلسي بنظيره المشرقي في بداياته.

أهم فنون النثر في الأندلس.
تطور النثر في مختلف أطوار العصر الأندلسي.
سمات النثر الأندلسي في عصوره المختلفة وبخاصة بعد نضجه.
مقدمة:
تأثر النثر الأندلسي بالنثر في المشرق العربي، ولذلك يلاحظ الباحث أن أي تطور في النثر المشرقي أو تجديد فيه لابد أن تنعكس آثاره على الأندلس، فإذا كنا قد تعرفنا عند دراستنا السابقة للنثر العباسي على طريقة الجاحظ وابن العميد وبديع الزمان، فإننا سنجد أصداء ذلك في الأندلس.
وقد امتاز كثير من كتاب الأندلس بجمعهم بين الشعر والنثر، فكان لهذا الجمع بين الفنين أثره في صبغ النثر بالصبغة الشعرية مما أعطاه جمالا ورقة وحسن اختيار للألفاظ والأساليب.
أولاً: تأثر النثر الأندلسي بنظيره المشرقي:
في العصور الأولى كانت دواعي النثر كثيرة، وذلك بسبب تأسيس الدولة الجديدة، ومع هذا لم تحفظ لنا المراجع الكثير من نثر هذه الفترة.
ومن زاوية أخرى فإن النثر في عصور الأندلس الأولى كان في مجمله كما كان الشعر، محاكاة للنثر في المشرق، فما أن تظهر مدرسة نثرية في الشرق، إلا ونجد صداها في الأندلس.
غير أن ما يلاحظ في أهل الأندلس هو تميزهم في الجمع بين الكتابة والشعر، فالمعروف مثلاً في المشرق أن ابن المقفع والجاحظ وعبد الحميد الكاتب وابن العميد كانوا كتاباً، والمتنبي وبشار وأبا تمّام كانوا شعراء.
بينما أهل الأندلس شاعرهم كاتب و كاتبهم شاعر مثل ابن زيدون وابن الخطيب وابن شهيد وابن الأبّار وغيرهم.
ثانيا: أهم فنون النثر في الأندلس.
تعددت فنون النثر العربي في الأندلس، فتناول الأندلسيون ما كان معروفاً في المشرق من خطب ورسائل ومناظرات ومقامات، وزادوا عليها بعض ما أملته ظروف حياتهم وبيئاتهم.
وقد شاع فيهم تصنيف كتب برامج العلماء، التي تضمنت ذكر شيوخهم ومروياتهم وإجازاتهم، وقد تبلورت في العصور الأندلسية المتأخرة فنون نثرية يمكن تقسيمها إلى:
فن التراجم
المناظرة
الخطابة
فن المقامات
فن الترسل (الرسائل الأدبية).
كتب النقد الأدبي
النثر الصوفي
أدب الرحلات
نثر الدراسات (النثر التأليفي)
التاريخ
فن التراجم:
الترجمة هي الحديث عن حياة الأعلام البارزين وهي فن نثري عرف بدايةً عند أهل الحديث وتختلف الترجمة من مترجم إلى آخر فثمة من يهتم بنسب المترجم به وميلاه ووفاته، وشيوخه وتلاميذه ومؤلفاته، وغير ذلك بحسب هدف المترجم.

وقد ظهرت لدى المسلمين الكثير من الكتب الخاصة بهذا الفن ككتب الطبقات، أو الوفيات، أو السير، والترجمة تقترب كثيرا من التاريخ، ولكن ما نعنيه هي التراجم الأدبية.
وقد عرف هذا الفن في الأندلس، ومن نماذجه (الغصون اليانعة في شعراء المئة السابعة)، و(المقتبس من أنباء أبناء الأندلس) والذي كان مقدمة لسلسلة من الكتب في بابه مثل (جذوة المقتبس) و(الصلة) و(صلة الصلة) و(الذيل والتكملة) وكتاب (التكملة) و(عائد الصلة).
ويدخل في فن التراجم الترجمة الذاتية، ومن نماذجها في الأندلس ترجمة ابن الخطيب لنفسه ولوالده في (الإحاطة) وترجمة ابن الآبار لوالده ولنفسه في (التكملة).
المناظرة:
وهي فن يهدف الكاتب فيه إلى إظهار مقدرته البيانية وبراعته الأسلوبية، وهي نوعان خيالية وغير خيالية.
المناظرات الخيالية:
مناظرة بين السيف والقلم لابن برد الأصغر، وقد رمز بالسيف لرجال الجيش، وبالقلم لأرباب الفكر، ثم أجرى الحوار بينهما، وانتهى فيه إلى ضرورة العدل في المعاملة بين الطائفتين.
المناظرات غير الخيالية:
ما تجري فيه المناظرة بين مدن الأندلس ومدن المغرب كمفاخرات مالقة وسلا للسان الدين بن الخطيب، وكانت مالقة أيام الدولة الإسلامية من أعظم الثغور الأندلسية، أما سلا فهي مدينة رومانية قديمة في أقصى المغرب، وقد فضل الكاتب مالقة.
الخطابة:
عرفت الخطابة عند العرب قبل الإسلام، وارتقت كثيراً بعد الإسلام على يد خير الخلق محمد صلى الله عليه وسلم،فهو الذي جعلها على ثلاثة أجزاء مقدمة ثم موضوع ثم خاتمة، وتسمي العرب الخطبة الغير مفتتحة بالتحميد بالبتراء و الخطبة الخالية من الاقتباسات النبوية أو القرآنية بالشوهاء.
ويمكن تقسيم الخطبة إلى ثلاثة أنواع من حيث موضوعها، هي:
الخطبة السياسية.
الخطبة الدينية.
خطبة الوفود.
والخطبة الأدبية هي التي تمتاز بأسلوبها الأدبي الذي يغلب عليه انتقاء الألفاظ واختيار الجمل والعبارات بعناية، والمزاوجة بين الأساليب الإنشائية والخبرية، والمراوحة بين الشعر والنثر.
وقد عرفت الخطابة في الأندلس منذ فتحها، ونشير إلى النص الخطابي المشهور المنسوب إلى طارق بن زياد، وتمتلئ كتب التراث الأندلسي بنصوص خطابية كثيرة، كما نجد في كتابي المقّري (نفح الطيب) و(أزهار الرياض).
فعندما دخل العرب الأندلس فاتحين كانوا بطبيعتهم ميالين إلى الخطابة، ثم إن عصر الولاة كان عصر اضطراب وحروب وصراع بين العصبيات لعربية، فكان ذلك داعيا إلى ازدهار الخطابة في الأندلس في ذلك العصر.
فكانت الخطابة الوسيلة الفعالة في إشعال الحروب وتأييد العصبية القبلية عندما تكون الحروب والنزاعات بين العرب العدنانيين والقحطانيين، وكانت الوسيلة الفعالة في الحث على الجهاد وقتال الكفار عندما تكون الحروب ضد نصارى الأندلس.
وكانت الخطابة في تلك الفترة تتميز بالسهولة والوضوح والإيجاز والبعد عن التكلف؛ والبعد عن السجع؛ القدرة على التأثير؛ والجريان مع الطبع

لأن الخطباء من الولاة والأمراء والقادة كانوا عربا مطبوعين على الخطابة والارتجال، لكن عندما استقرت الأمور ومال الناس إلى الدعة ضعفت الخطابة الأندلسية، وتفوق فني الشعر والنثر عليها.
وإن كانت الخطابة الدينية قد ازدهرت بفضل بعض العلماء الذين كانوا يجيدون الخطابة كالقاضي منذر بن سعيد البلوطي.
وعندما عادت الأندلس إلى عصر الاضطراب والحروب في عهد ملوك الطوائف والمرابطين والموحدين كانت الملكة والسليقة العربية قد ضعفت، فلم تزدهر الخطابة من جديد مع وجود دواعي الازدهار، بل دخلها كثير من الصنعة اللفظية، وامتلأت بالسجع المتكلف فضعفت، ولم يعد لها تأثير يذكر.
وأشهر خطباء الأندلس: طارق بن زياد فاتح الأندلس، والأمير عبد الرحمن الداخل مؤسس الحكم الأموي في الأندلس، ومنذر بن سعيد البلوطي، والقاضي عياض، ولسان الدين بن الخطيب.
فن المقامات:
وهو فنٌ قصصي ظهر في المشرق بدايةً عند بديع الزمان الهمذاني، ثم الحريري، وقد وجد هذا الفن في الأندلس وتطور شيئاً فشيئاً حتى اقترب من شكل الرسالة، وقد عارض أبو طاهر محمد التميمي السرقسطي (توفي بقرطبة سنة ٥٣٨هـ) مقامات الحريري الخمسين بكتاب الخمسين مقامة اللزومية.
وهي المعروفة بالمقامات السرقسطية، ولزم في نثرها المسجوع ما لا يلزم. وكتب أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الأزدي (ت٧٥٠هـ) «مقامة العيد» التي استكدى فيها أضحية العيد من حاكم مالقة الرئيس أبي سعيد فرج بن نصر.
كما ألّف لسان الدين بن الخطيب مقامات كثيرة منها مقامته في السياسة، وقد بناها على حوار بين بطلين هما الخليفة هارون الرشيد وحكيم فارسي الأصل عربي اللسان، وقد تضمّنت آراؤه وتجاربه الشخصية فيما ينبغي أن تكون عليه سياسة الحكم.
فن الترسل (الرسائل الأدبية):
كانت الرسالة في القرن الأول من الفتح ذات أغراض محددة أملتها ظروف العصر، وكان لا يلتزم فيها سجع ولا توشية، ، ثم حظيت كتابة الرسائل بكتاب معظمهم من فرسان الشعر استطاعوا بما أوتوا من موهبة شعرية وذوق أدبي أن يرتقوا بأساليب التعبير وأن يعالجوا شتى الموضوعات.
فظهرت الرسائل المتنوعة وتنقسم إلى:
الرسائل الديوانية أو (السلطانية)
وهي تلك التي تكتب بشكل رسمي وتصدر عن دار الحكم موجهة إلى حاكمٍ آخر أو إلى الوزراء أو على العمال (الأمراء)، أو إلى عامة الناس، وتسمى بالديوانية، ومن كتاب الرسائل السلطانية: ابن زيدون، وابن برد الأصغر، ولسان الدين ابن الخطيب.
الرسائل الإخوانية:
وهي التي يتبادلها الأدباء فيما بينهم، ومن الرسائل الإخوانية رسالتا ابن زيدون الهزلية والجدية لحاكم قرطبة أبا الوليد بن جهور، ورسالة لسان الدين بن الخطيب إلى صديقه ابن خلدون في الشوق إليه.
وتقترب خصائص الرسائل الإخوانية من خصائص الرسائل الديوانية، غير ان الديوانية أطول، وتلتزم فيها عادةً أصول الكتابة، ورسوم المخاطبات الملوكية والسلطانية، فمن خصائص الرسائل الإخوانية:
التّعبير عن المشاعر والأحاسيس.
التّحـيّة والسّـــلام .
ألفاظها مختارة بعناية.
عباراتها مشحونة بالمعاني.
التّصوير الفنّي.

الإيقاع الموسـيقـــــي.

الرسائل الأدبية الخالصة:

وهي التي تتحدث في شأن عام أو خاص، ويمكن إطلاق لفظ الأدبية على كافة المراسلات التي تأخذ شكلا أدبيا وترقى بموضوعها إلى درجة العمومية، ويمكن أن يدخل في هذا النوع المناظرات والمحاورات التي كانت تتم بين الكتـّاب.

كتب النقد الأدبي:

ومن أشهرها (كتاب التوابع والزوابع) لابن شهيد الأندلسي وهو كتاب في نقد الشعراء، وقد بناه على فكرة أن لكل شاعرٍ تابعاً من الجن يلهمه شعرا أو يساعده في نظمه وهي فكرة قديمة وجدت في البداية لدى أبي زيد القرشي في كتاب (جمهرة أشعار العرب) وهو من كتب المشارقة في العصر العباسي.

النثر الصوفي:

الصوفية مختلف في نسبتها فمنهم من يعزوها للبس الصوف وهناك من ينسبها لأهل الصفة.

والمتصوفة منهم غلاة ومنهم معتدلة، ومن أسوأ ما يعتقده الكثير من المتصوفة (عقيدة الحلول والاتحاد) و(عقيدة وحدة الخلق)، والكثير من الفكر الصوفي هي خزعبلات وخليط من الأديان المختلفة ففيها من الهندوسية، والنصرانية،واليهودية،واقرأ إن شئت كتاب (هذه هي الصوفية) لعبد الرحمن وكيل.

ونقصد بالنثر الصوفي الذي عرف في الأندلس الإشارة إلى بعض الكتب التي تحدثت حول فلسفة الحب. مثل كتاب (روضة التعريف بالحب الشريف) لابن الخطيب الأندلسي، وهو كتاب حول المفهوم الحقيقي للحب الإلهي النقي.

ويدخل في هذا النوع من الكتب، الكتب التي تحدثت عن فلسفة الحب البشري مثل كتاب (طوق الحمامة في الإلف و الإيلاف) لابن حزم الظاهري.

أدب الرحلات:

أشهر رحالتين في التاريخ العربي هما (ابن بطوطة وابن جبير)، وكلاهما من رجال الأندلس، وقد سجلا ما لقياه في رحلتيهما في كتابيهما المشهورين (رحلة ابن بطوطة، ورحلة ابن جبير).

ولقد كتب غيرهم كتباً مشابهة لهذين تحدثوا فيها عن رحلتهم، ولكنها لم تشتهر شهرة هذين الكتابين، ومن ذلك كتاب (التعريف بابن خلدون رحلته شرقاً وغرباً) لابن خلدون الكاتب والأديب والمؤرخ المعروف، ومؤسس علم الاجتماع.

نثر الدراسات (النثر التأليفي):

وهي تلك الكتب التي كتبت بأسلوب أدبي في موضوعات تاريخية، أو اجتماعية أو جغرافية، وجعلها أصحابها على أبواب و فصول، وهي كثيرة جداً ومن نماذجها: العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، وقلائد العقيان للفتح ابن خاقان الأندلسي والمغرب لابن سعيد الأندلسي، وكتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر لابن خلدون وغيرها...

التاريخ:

والتاريخ في أصله علم، يقوم على رصد الحقائق التاريخية، وهو أقرب العلوم إلى الأدب، وبخاصة إذا ما صيغ صياغة أدبية.

ونجد بعض كتب التاريخ التي دبجت في الأندلس، تتخذ الصيغ الأدبية، ويمزج المؤرخون الأدب مع التاريخ، إذ يركزون على الجانب الأدبي أحياناً لبعض الشخصيات التاريخية، وقد يورد شيئاً من النماذج الشعرية أو النثرية.

ومن نماذج ذلك في التراث الأندلسي الإسلامي ((كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة)) لابن بسام الشنتميري.

ثالثا: تطور النثر في مختلف أطوار العصر الأندلسي:

عرفت في الصدر الأول من الفتح نماذج قليلة من النثر اقتضتها ظروف الفتح، كالخطابة التي تطلبتها مناسبات سياسية ودينية، والكتابة التي اقتضتها ظروف الحكم، وكتابة العهود والرسائل والتوقيعات. وهو نثر تغلب عليه المسحة المشرقية من حيث الميل إلى الجزالة وقوة العبارة وعدم اللجوء إلى المحسنات، ما عدا خطبة طارق بن زياد التي يدور الشك حول نسبتها إليه، وفي عهدي بني أمية والطوائف ظهر نوع من النثر المتأثر بنثر الجاحظ.

وكان للحكام دور في تشجيع الأدباء على التأليف، وإسناد الوزارة إلى أصحاب الحذق والمهارة. فقد ألف ابن فرج الجيّاني كتاب «الحدائق» وقدمه للحكم المستنصر، وقد انتدب المعتضد العبادي الأديب الشاعر ابن زيدون لرئاسة الوزارة وإمارة الجيش فسمي بذي الوزارتين: وزارة السيف، ووزارة القلم. وفي عهدي المرابطين والموحدين ظهرت طائفة من الكتاب عنيت بالكتابة الإنشائية والتأليف في مختلف الأغراض، كما انتشرت في عهد الموحدين المكتبات التي تضم الكتب النفيسة.

وعكفت طائفة من الكتّاب على تأليف كتب جديدة منها «المطرب من أشعار أهل المغرب» لابن دحية (ت٦٣٣هـ)، أو اختصار القديمة منها «اختصار الأغاني» للأمير أبي الربيع الموحدي (ت٦٠٤هـ)، أو تدوين رسائل تشيد بما وصلت إليه الأندلس من تقدم ثقافي وازدهار علمي منها «رسالة في فضل الأندلس» للشقندي (ت٦٢٩هـ).

وفي عهد بني الأحمر اتسعت النماذج النثرية فصدر عن الكتاب النثر الديواني الذي يضم الرسائل، والكتابات على شواهد القبور، والعلامة السلطانية والنثر الإخواني بين الكتاب وذوي السلطة، أو بين الكتاب أنفسهم.

والنثر الوصفي الذي يتناول وصف الشخصيات والاعلام، ووصف المدن والرحلات مثل رحلة البلوي خالد بن عيسى (ت٧٦٨هـ) وعنوانها «تاج المفرق في تحلية علماء المشرق».

وكثر التأليف في المقامات التي عنيت بتسجيل هموم الحياة، وخرجت عن الكدية والاستجداء إلا في القليل ومنها «مقامة العيد» التي استكدى فيها الأزدي خروف العيد ليرضي زوجته.

رابعا: سمات النثر الأندلسي في عصوره المختلفة وبخاصة بعد نضجه، تتلخص فيما يلي:

الاقتباس من القرآن الكريم والأحاديث النبوية والحكم والأمثال.

استخدام بالمحسنات البديعية، اللفظية والمعنوية، مثل السجع والجناس والطباق والمقابلة، والتورية والكناية والمجاز.

وضوح المعاني، وبساطة الألفاظ وسهولتها، و خلو العبارات من الركاكة والحشو.

المزاوجة بين الشعر والنثر.

المراوحة بين الأساليب الخبرية والإنشائية.

الإيجاز وهو البلاغة.

صدق العاطفة، ويبرز في أكثر النصوص الشعرية والنثرية.

سمو المعاني والأفكار والموضوعات التي عبروا عنها.

جودة الخيال والصورة بحيث يصبح النص قادرا على التعبير والتأثير والإيحاء.

نثر المنظوم، ونظم المنثور.

المحاضرة العاشرة

علماء الأدب في الأندلس

عناصر المحاضرة:

اعلام الشعر في الأندلس.

أعلام الكتابة والشعر في الأندلس.

أعلام الشعراء:

لم يهتم الناس في عصر الولاة بصناعة الأدب لانشغالهم بالفتوح وإن لم يخل العصر ممن نظموا الشعر في بعض المناسبات.

فقد حفظت المصادر اسم أبي الأجرب جعونة ابن الصمة، وأبي الخطار حسام بن ضرار الذي وفد على الأندلس والياً سنة ١٢٥هـ/٧٤٢م.

وفي عصر الإمارة نشط الشعر، وكان العدد الأكبر من الأمراء الأمويين في الأندلس شعراء منهم عبد الرحمن الداخل (١١٣-١٧٢هـ) وتبدو في شعره رقة الشعر الأموي وجزالته، وقد طرق موضوعات عدة لكنه تعمق في الفخر والحنين.

كما اشتهر من العامة يحيى بن حكم الغزال، وقد ترك شعراً يصنف في ثلاث مراحل: الأولى: مرحلة الشباب، وتغلب عليها موضوعات الغزل وما يتصل بذلك من دعابة ومجون، وقد سافر إلى بلاد النورمان أيام عبد الرحمن الأوسط فأعجب بملكتهم «تيودورا» وابنها فوصفها في شعره، والثانية هي مرحلة التعقل والأناة، وتغلب عليها موضوعات النقد الاجتماعي، ثم تأتي المرحلة الثالثة وهي مرحلة الزهد التي يذكّر فيها بالموت والفناء.

أما جعفر بن عثمان المصحفي، وقد استخدمه الحكم المستنصر في الكتابة، فهو الحاجب الشاعر الذي فتن بالطبيعة فوصفها، وله أشعار يشكو فيها الزمان. وأما ابن فرج الجيَّاني فقد اشتهر بالكتابة والتأليف، وله أشعار غزلية تمثل الغزل العذري العفيف.

وأما ابن هانئ، ويقال له الأندلسي تمييزاً له من ابن هانئ الحكمي (أبي نواس)، فقد نشأ بإشبيلية ثم غادرها إلى المغرب لتألب الناس عليه بسبب أفكاره الفلسفية، فلقي جوهراً قائد المعز لدين الله الفاطمي ومدحه، ثم اتصل بالمعز، وغادر معه إلى مصر بعد أن بنى جوهر القاهرة، ثم استأذن بالعودة إلى المغرب لاصطحاب أسرته، لكنه قتل في الطريق فقال المعز لما علم بنبأ قتله: «هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا».

وفي مرحلة الحجابة عرفت طائفة من الشعراء عاصر بعضهم المرحلة السابقة كالمصحفي، ولمع آخرون منهم المرواني الطليق (ت٤٠٠هـ) وكان شاعراً مكثراً. قال عنه ابن حزم «إنه في بني أمية كابن المعتز في بني العباس».

ومنهم يوسف بن هرون الرمادي (ت٤٠٣هـ) اشتهر عند الأندلسيين بلقب (متنبي المغرب) لغوصه على المعاني، وفنون شعره هي المدح والوصف والغزل.

ومنهم ابن دراج القسطلي (نسبة إلى قسطلة دراج من أعمال مدينة جيَّان) وهو يعد من أوفر الأندلسيين نتاجاً، وقد تقلب في ظلال نعمة المنصور بن أبي عامر، وخلد الكثير من غزواته.

وفي عصر الفتنة كان الشعراء أقل عدداً من شعراء المراحل السابقة، وقد مزج بعضهم الشعر بكثير من النثر لأنهم عملوا في الدواوين، وكان بعض الخلفاء شعراء كالخليفة المستعين.

من شعراء هذه المرحلة أبو إسحاق الإلبيري وكان فقيهاً زاهداً له قصيدة حرض فيها صنهاجة (قبيلة باديس بن حبوس) على الوزير المتنفذ في غرناطة ابن النغريلة اليهودي، فكانت السبب في قتله.

ومنهم ابن عمار (ت٤٧٧هـ) الذي صحب المعتمد بن عباد منذ صباه ثم ساءت العلاقة بينهما، فلقي حتفه على يد المعتمد. له شعر في الوصف والغزل والمدح والشكوى والاستعطاف.

ومنهم ابن الحداد الوادي آشي (ت٤٨٠هـ) صاحب إشبيلية، نفاه يوسف بن تاشفين إلى أغمات في المغرب بعد تغلبه على الأندلس. من فنونه الشعرية الغزل والوصف والشكوى.
ومنهم ابن اللبانة (نسبة إلى أمه التي كانت تبيع اللبن) اختص بمدح عدد من ملوك الطوائف ومنهم المعتمد.
من شعراء عصر المرابطين نبغ الأعمى التطيلي، في الشعر والموشحات، إلا أن شهرته في الموشحات أكثر منها في القصائد، وابن خفاجة (ت٥٣٢هـ) فهو شاعر الوصف الأول في الأندلس، وقد لقب بالجنان، وبصنوبري الأندلس.
وقد مدح شخصيات معاصرة له، وابن الزقاق (ت٥٢٩هـ) فقد نزع منزع خاله ابن خفاجة في الغزل ووصف الطبيعة، وله مدح ورثاء وهجاء.
وفي عصر الموحدين سيطر على الناس حب الأدب، وقرض الشعر. فالرصافي البلنسي (ت٥٧٢هـ) ولد في رصافة بلنسية، وبها قضى شطراً من حياته، ثم تحول إلى مالقة وترسم خطوات أستاذه ابن خفاجة في الوصف والمدح، وله شعر في الحنين.
وابن مرج الكحل (ت٦٣٤هـ) كان شاعراً مطبوعاً يغلب على شعره الوصف والغزل. وابن عربي، محيي الدين كان شاعراً ووشاحاً. من آثاره الشعرية ديوانه وترجمان الأشواق.
وابن سهل الإشبيلي، إبراهيم كان والده يهودياً، وقد أسلم وحسن إسلامه. اشتهر بقوة الحافظة والقدرة على نظم الشعر، وقد ضم ديوانه قصائد في الغزل والوصف والزهد، واشتهر بموشحاته.
وابن خاتمة الأنصاري اشتهر مؤلفاً مصنفاً، وشاعراً، وأبرز أغراضه الشعرية التأمل والنسيب والغزل والإخوانيات ووصف الطبيعة، وقد أكثر من التورية في شعره، وجمعها ابن زرقاله تلميذه في مصنف سماه «رائق التحلية في فائق التورية».
ويوسف الثالث (ت٨٢٠هـ) اشتهر أميراً ثم ملكاً شجاعاً، وشاعراً أصيلاً تبدو في أشعاره الحماسة العارمة والروح الدينية الوثابة.
وابن فركون القيسي، وقد أدرك شطراً من القرن الثامن الهجري، وقدراً من القرن التاسع. ومن ممدوحيه يوسف الثالث، وجمع ما قيل فيه في كتاب سماه «مظهر النور الباصر في أمداح الملك الناصر». ترك ديوان شعر فيه المدح والغزل والوصف والإخوانيات والعتاب.
وعبد الكريم القيسي البسطي من شعراء القرن التاسع الهجري، وكانت ثقافته شرعية وأدبية، ويصور شعره جوانب العصر (أيام الأندلس الأخيرة) التاريخية والاجتماعية.
أبرز أعلام الكتاب في الأندلس:
وفي عصر الخلافة ظهر ابن عبد ربه (ت٣٢٨هـ): وكان شاعراً وكاتباً، وله في النثر كتاب «العقد الفريد» الذي قسمه إلى خمسة وعشرين باباً، وجعل لكل بابين منها اسم جوهرة لتقابلهما في العقد، وهو يجمع بين المختارات الشعرية والنثرية، ولأن أكثر مواده تتصل بالمشرق، فقد قال الصاحب بن عباد لما اطلع عليه: بضاعتنا ردت إلينا.
وهو الذي طرق الأغراض الشعرية المعروفة، ولما تناهت به السن نظم «الممحصات» وهي قصائد نقض فيها ما قاله في الصبا، فجاء بأشعار تغص بالمواعظ والزهد.
شهد ابن شهيد (ت٤٢٦هـ) عصر الفتنة الذي كان فاصلاً بين توحد الأندلس تحت ظل العامريين (حجّاب دولة بني أمية) وبين ظهور دول الطوائف، وقد ترك آثاراً نثرية وشعرية، وكان شاعراً وكاتباً.
من آثاره النثرية «رسالته في الحلواء» ورسالته المسماة «حانوت عطار» و«رسالة التوابع والزوابع» وهي قصة خيالية يحكي فيها رحلته إلى عالم الجن واتصاله بشياطين الشعراء والكتاب، وقد عرض من خلالها آراءه في اللغة والأدب.

أما ابن حزم (ت٤٥٦هـ) فقد شهد عصر الفتنة فقد ولد بقرطبة سنة ٣٨٤هـ ونهل من معين الثقافة مبكراً، وكان عالماً بالشعر، وصاحب مذهب حر في النقد.
وكان في عصره صوتاً يغاير ما كان عليه جمهرة فقهاء الأندلس (كان المذهب السائد هو مذهب مالك) فقد تمذهب أول حياته بمذهب الشافعي، ثم مال إلى المذهب الظاهري، فاحتج له، وألف فيه، فأمر المعتمد بن عباد بحرق كتبه بتحريض الفقهاء.
اشتهر شاعراً وكاتباً، ومؤلفاته النثرية كثيرة تتناول شتى الموضوعات في الفقه والأدب والأنساب والتاريخ.
ابن سيْدَة (ت٤٥٨هـ): وكان أعلم الناس بغريب اللغة من أشهر مؤلفاته كتابي «المخصص» و«شرح مشكل أبيات المتنبي».
وابن عبد البر وكان من أهل قرطبة، واشتهر برسائله التي يغلب عليها الاتجاه السياسي والحديث عن الصداقة والمودة، وقد وصف الشطرنج.
منهم ابن زيدون (٤٦٣هـ): وكان متقدماً في علوم العربية وفي رواية الشعر. أدرك أواخر عهد الدولة المروانية، وخدم دولتي بني جهور في قرطبة، وبني عباد في إشبيلية، أحب ولادة ابنة المستكفي، وتغنى بحبها.
ومن فنونه الشعرية الوصف والمدح والاستعطاف والشكوى، وقد افتنَّ برسائله، فكتب الهزلية على لسان ولادة إلى ابن عبدوس يسخر منه كما سخر الجاحظ في رسالة التربيع والتدوير من الكاتب أحمد بن عبد الوهاب.
وقد ساق ابن زيدون تهكمه في سيول من الأشعار والأمثال وأسماء الرجال، وحرص على تناسق الإيقاع، فكان السجع نائباً عن الأوزان والقوافي.
كما كتب الرسالة الجدية يستعطف فيها قلب ابن جهور فيخرجه من السجن، وقد بدأها بالنثر وختمها بالشعر، وهي من حيث القيمة الفنية لا تقل عن الهزلية.
تمام بن غالب بن عمر (ت٤٣٦هـ): وهو من أعلام النحويين واللغويين ويعرف بابن التياني نسبة إلى التين وبيعه. من كتبه «الموعب في اللغة» و«تلقيح العين».
أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى (ت٤٧٦هـ): المعروف بالأعلم لأنه كان مشقوق الشفة العليا، والشنتمري نسبة إلى شنتمرية من بلاد الأندلس وله شروح على الكتب المشرقية، وعلى دواوين بعض الشعراء الجاهليين.
ومن كتّاب القرن الخامس الهجري ابن الدبّاغ الذي نشأ في سرقسطة وترعرع فيها، وقد أعلى المقتدر بن هود منزلته لفصاحته وبلاغته. له رسائل يغلب عليها الاتجاه الاجتماعي، وقد جاءت معظم رسائله مملوءة بالشكوى من الزمان.
ابن طاهر (ت٥٠٧هـ): وقد تناول كثيراً من موضوعات أدب الرسائل وأغراضه بحكم إمارته لمرسية، فكتب في الجهاد والصراع مع الصليبيين وفي موضوعات الرسائل الإخوانية، وفي الفكاهة والهزل.
ابن أبي الخصال الغافقي (استشهد سنة ٥٤٠هـ): وقد شغل مناصب إدارية في دولة المرابطين، وألف في المقامات، وشارك في نمط من الرسائل عرفت بالزرزوريات.
ومنهم ابن بسام صاحب كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»، وضمنه محاسن أدباء الأندلس من بُعيد الدولة المروانية إلى عصره.
ومنهم محمد بن عبد الغفور الكلاعي (ت٥٤٥هـ) وقد ألف كتاب «إحكام صنعة الكلام» في النثر وفنونه.

ابن طفيل (ت٥٨١هـ) وكان طبيباً وأديباً وفيلسوفاً اشتهر بقصته «حي بن يقظان» التي تعد من أعظم الأعمال القصصية الفكرية في العصور الوسطى، والهدف منها الوصول إلى معرفة الخالق والإيمان به.
أبو الحجاج بن محمد البلوي (ت٦٠٤هـ) ويعرف بابن الشيخ، وكان موفور الحظ من علم اللغة والأدب، مشاركاً في النقد والأصول.
من مؤلفاته كتاب «ألف باء» وهو أشبه بموسوعة جامعة لفنون الثقافة العامة صنّفه ليتأدب به ابنه عبد الرحيم (ت٦٣٨هـ).
ومنهم ابن جبير (ت٦١٤هـ) أبو الحسين محمد، وكان شاعراً وكاتباً له الرحلة المشهورة وقد دونها بأسلوب رصين جزل الألفاظ سهل التراكيب وهي من رحلاته المشرقية الثلاث.
ومنهم محيي الدين بن عربي صاحب المؤلفات الصوفية ومنها «الفتوحات المكية» و«فصوص الحكم». وله «الوصايا».
وابن الأبّار عرفت أشعاره في موضوعات الوصف والغزل والرثاء، وشعر الاستغاثة. ومؤلفاته تربو على خمسة وأربعين كتاباً وصلنا منها «تحفة القادم» و«التكملة» لصلة ابن بشكوال، و«المعجم» و«درر السمط في خبر السبط».
ومنهم حازم القرطاجني الذي كان شاعراً ونحوياً وناقداً، وفنون شعره المدح والغزل والوصف. وأشهر كتبه «منهاج البلغاء وسراج الأدباء» الذي يمثل قمة من قمم النقد الأدبي.
ومنهم أبو الطيب (أبو البقاء) الرندي: من شعراء بني الأحمر وكان أديباً شاعراً ناقداً. واسمه صالح بن يزيد، اشتهر برثاء الأندلس، وله شعر في المدح والغزل.من كتبه «الوافي في نظم القوافي» وهو من كتب النقد والبلاغة.
وابن سعيد (ت٦٨٥هـ): الذي نظم الشعر وارتحل ودوّن مذكراته، وترك آثار أدبية تدل على ثراء في الموهبة، واستقامة في التعبير، ومن كتبه المطبوعة «المُغرب في حلى المَغرب» و«القدح المُعَلَّى».
ومنهم ابن الجيّاب (ت٧٤٩هـ) وقد تدرج في الخدمة في دواوين بني الأحمر حتى صار رئيس كتاب الأندلس، وتخرج على يديه عدد من أهل العلم والأدب.
ومنهم لسان الدين بن الخطيب، أبو عبد الله محمد بن عبد الله، ولسان الدين لقب عرف به، كما عرف بذي العمرين، وذي الميتتين، وذي الوزارتين. وقد ولد في لوشة على مقربة من غرناطة ـ ترك أكثر من ستين مؤلفاً في الأدب والتاريخ والتصوف والطب والرحلات وديوان شعر عنوانه «الصَيِّب والجهام والماضي والكهام».
ومن آثاره «الإحاطة في أخبار غرناطة» و«اللمحة البدرية في الدولة النصرية» و«نفاضة الجراب في علالة الاغتراب».. وغيرها.
وابن زمرك، وقد شارك في فنون أدبية مختلفة كالكتابة والشعر والموشحات، ويعرف بشاعر الحمراء لأن مقر الحمراء في غرناطة مزدان بشعره.
وأبو عبد الله محمد بن محمد (ت٧٥٨هـ)، وكان كاتباً بارعاً وشاعراً مشهوراً يغلب على شعره المدح، وهو الذي دون رحلة ابن بطوطة وصاغها بقلمه بأمر من أبي عنان المريني سلطان المغرب.

المحاضرة الحادية عشرة

نماذج من علماء الأندلس
الشخصية الأولى ابن شهيد
عناصر المحاضرة:
ابن شهيد.

مؤلفاته.
النثر في أدب ابن شهيد الأندلسي.
شعر ابن شهيد.
مرضه ووفاته.

ابن شهيد

ابن شهيد الأندلسي شاعر وأحد أعلام الأدب الأندلسي، هو أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن مروان بن أحمد بن عبد الملك بن شهيد، يعود بنسبه إلى غطفان، كان والده عبد الملك من شيوخ الوزراء في الدولة العامرية مقرباً من المنصور بن أبي عامر الذي كان الأمر له.

ولد ابن شهيد في قرطبة وترعرع في حياة منعمة مرفهة نظراً لمكانة والده، بالإضافة لرعاية المنصور وتدليله له، وظل ابن شهيد ينعم بالحياة المرفهة في ظل رعاية ملوك وأمراء الدولة العامرية، حتى بعد أن قام والده بالزهد في الدنيا ودعا أولاده للتقشف.

انتقل ابن شهيد من رعاية المنصور ليحظى برعاية المظفر ولي العهد الذي ألبسه الحرير وانعم عليه بالمال والملابس الجديدة، وفي عهد المظفر ارتقى ابن الشهيد في المناصب حتى وصل إلى مرتبة الوزارة، ومن بعد المظفر اتصل بأخيه عبد الرحمن الناصر.

نظراً للمكانة الأدبية والاجتماعية التي حظي بها ابن شهيد عند الملوك والأمراء كثر الحاسدين والحاقدين عليه والذين تنكروا له فبذلوا الجهود للانتقاض من شعره وأدبه، وسعوا للوقيعة بينه وبين الأمراء، فتكدرت حياته، وسجنه المعتلي ابن حمود بسبب وشاية سُعي بها إليه.

وزج به في السجن فكتب قصيدته الدالية يستعطفه بها، ويعتذر إليه قائلاً:

إلى المُعتلي عالَيتُ هَمّي طَالِباً لِـكَـرَّتِـه إنَّ الـكَـريـمَ يَـعـودُ
هُـمـامٌ أراه جُـودُه سُبُل الـعُلا وَعَـلَّمَهُ الإحسانَ كَيفَ يَسودُ

وما لبث بعدها أن" استقامت أحواله زمن المعتلي ، وتوطدت علاقته به بعد أن أطلق سراحه ، فمدحه بالعديد من القصائد " ولم يستمر الحال على ما هو عليه ، ولم يهنأ ابن شهيد بتلك الصحبة فسرعان ما تنكب حكم المعتلي.

فبين المدح ، والاعتذار، والشكوى، وعلى أنقاض تلك الفتنة، وعلى أطلال النعيم الزائل، وقف ابن شهيد هناك يرثي قرطبة، ويبكي مجد الوطن الضائع، وجمال الطبيعة الخرب،"وقد كانت نكبة قرطبة بمثابة فاجعة كبرى حلت بأبي عامر بن شهيد، لأنها هوت بالمجد العامري.

مؤلفاته:

تفرق شعر ابن شهيد ولم يصلنا منه سوى القليل والذي تفرق في بعض كتب الأدب مثل يتيمة الدهر للثعالبي، ووفيات الأعيان لأبن خلكان، ومن نثره لم يبق سوى فصول من رسالة التوابع والزوابع والتي احتفظ بها ابن بسام في كتابه الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة.

ومن أثاره الأخرى نذكر كشف الدك وأثار الشك، حانوت عطار، بالإضافة لغيرها من الأشعار والرسائل المتفرقة بين كتب الأدب.

النثر في أدب ابن شهيد الأندلسي:

حظي النثر في العصر الأندلسي بمكانة مميزة ربما تفوق فيها على الشعر حيث تنوعت فروعه وانضمت إليه القصة والتي تناولت الكثير من الأحداث والأبطال وفي هذا لقد استطاع ابن شهيد الأندلسي أن يسجل لنفسه حضوراً متميزاً في صفوف رواد النثر الفني في الأدب العربي.

فرسائله التي حوتها دفتي (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) للشنتريني، تشير إلى ما تتمتع به شخصيته من أهمية أدبية وفنية تعبيرية.

وما لها من قدرة إبداعية نثرية ونقدية خاصة، لا تقتصر على عصره بل تتوارثها الأجيال عبر العصور المختلفة، فتتناقل ما تحمله تلك الكتابات النثرية من أسس فنية، وجماليات أسلوبية، وصور خيالية متفردة، ومخترعة أحياناً.

رسالة التوابع والزوابع:

قدم ابن شهيد رسالة التوابع والزوابع وهي رسالة أدبية نقدية أتت كشكل جديد للنثر.

وقد اختار ابن شهيد اسم التوابع والزوابع لكتابه كدلالة على المحتوى فالتوابع جمع تابع وهو الجني الذي يتبع الإنسان ويحبه ويرافقه، أما الزوابع فهي جمع زوبعة وهي شيطان مارد أو رئيس من الجن.

وتعد رسالة التوابع والزوابع من أشهر مؤلفات ابن شهيد وأهمها وذلك لضمها أرائه الأدبية والنقدية، واصطباغها بالطابع القصصي وبها الكثير من الخيال، فتدخل ضمن نوادر التراث القصصي العربي، وتتمتع بأسلوب فريد قلما نجده في غيرها من الرسائل الأدبية، فهي تعرض القضايا الأدبية والنقدية في إطار قصصي وذلك عبر مناظرات أدبية بين كل من ابن شهيد وتوابع بعض الشعراء والكتاب ونقاد الجن.

وفي التوابع والزوابع تخيل المؤلف أنه قام برحلة إلى عالم الجن وهناك التقى بشياطين الشعراء والكتاب ووقعت بينهم مناظرات أدبية تفوق فيها ابن شهيد على الجميع وأرضى غروره وذلك في إطار قصصي.

وفي رسالته التقى ابن شهيد بتوابع عدد من الشعراء والأدباء منهم امرئ القيس، طرفة بن العبد، قيس بن الخطيم، أبي تمام، البحتري، أبي نواس، المتنبي، الجاحظ، أبي القاسم الإفليلي وغيرهم.

ورسالة ابن الشهيد عبارة عن مدخل وأربع فصول فصل في توابع الشعراء، وفصل في توابع الكتاب، وفصل في نقاد الجن، وفصل في حيوان الجن.

مما قاله له تابع الجاحظ " انك لخطيب وحائك لكلام مجيد، لولا انك مُغْري بالسجع، فكلامك نظم لا نثر" فيجيبه ابن شهيد " ليس هذا أعزك الله، منى جهلاً بأمراً السجع، وما في المماثلة والمقابلة من فضل، ولكني عدمت ببلدي فرسان الكلام، ودهيت بغباوة أهل الزمان"

فيقول له الجني " فكيف كلامهم بينهم" فيقول " ليس لسيبويه فيه عمل، ولا للفراهيدي إليه طريق، ولا للبيان عليه سمة، إنما هي لكنة أعجمية، يؤدون بها المعاني تأدية المجوس والنبط."

شعر ابن شهيد:

جمع ابن شهيد في أدبه بين كل من الشعر والنثر، فقدم شعره السياسي والذي تنوع بين المدائح والمراثي وشعر المناسبات، ويميل شعره إلى القوة والجزالة، يُحسن وضع اللفظ في مكانه، واهتم في شعره باستخدام الصور والموسيقى، وتكلف أحياناً في استخدام الجناس.

مما قاله في رثاء حسان بن مالك وهو أحد أئمة اللغة والأدب:

أفي كُلِّ عامٍ مَصْرَعٌ لعَظِيم أصابَ المَنَايا حادِثِي وقدِيمي
هَوَى قمَرا قيْسِ بْن عَيْلانَ آنِفاً وأوْحَشَ مِن كَلْبٍ مَكَان زَعِيم
فكَيْفَ لِقَائِي الحادِثَاتِ إذاً سَطَتْ وقد فُلَّ سَيْفِي منهُمُ وعَزِيمِي
وكَيْفَ اهْتِدائي في الخُطُوبِ إذا دَجَت وقد فَقَدَتْ عَيْنَايَ ضَوْءَ نُجُومِي
مَضَى السَّلَفُ الوَضَّاحُ إلا بَقِيّةً كغُرّةِ مُسْوَدِّ القَمِيصِ بَهِيمِ

والنثر عند ابن شهيد يأتي موضحاً علاقاته الأدبية والسياسية وصداقاته، فيستشف القارئ لنثره أخباره وأراءه، ويغلب على نثره الطابع القصصي والذي يبرز من خلاله تتبعه للموصوف بتصوير ميزاته في الأعضاء والألوان والصوت والحركة والطباع.

الخصائص العامة للصورة البيانية في شعر ابن شهيد الأندلسي :

تتجلى شخصية ابن شهيد الأندلسي في مجمل معانيه الشعرية، التي ترجع في مدلولاتها الحسية، والعقلية إلى عدة مصادر أساسية تمثل ركيزة ثابتة الأثر في تشكيل نتاجه الأدبي والشعري منه خاصة.

إذ امتزجت بفكره ووجدانه وطبعت تصوراته ومواقفه تجاه محيطه، وأسهمت في تحريك شعوره تجاه ما يدور من حوله ، وفق ما تمليه عليه تلك المواقف الانطباعية والتأثيرية التي تكونت في بواطنه النفسية والفكرية.

ومما يمكن أن نرقبه في تلك المصادر أنها تتباين فيما تتركه من تأثير على الشاعر سواءً في إحساسه العاطفي.

أو رؤيته النقدية أو الفكرية، كما تتباين بما تحدثه في نظمه من قيمة فنية ومعنوية، إذ يتردد بسبب منها نتاجه الفني بين مستوى القوة والضعف في الصياغة، والمعنى.

تبعاً لمواقفه وانفعالاته الشخصية ، وقدرته الأدبية على التعبير عن مطالبه الاجتماعية والنفسية، والمتمثلة في الوزارة، واللهو والهدوء بعد الفتن، والترحم والذكر بعد الموت، وهي مصادر خاصة ذات تأثير خاص أيضاً في بناء الصورة البيانية عند ابن شهيد، وقد تمثلت عنده في جوانب ثلاث هي:

مقومات حياته الشخصية والاجتماعية.

أحداث الوضع السياسي في قرطبة.

الطبيعية بجماداتها وأحيائها.

المرض والوفاة:

اشتد المرض على ابن شهيد فعانى من الفالج والذي قضى على حركته تماماً حتى جاءت وفاته ودفن في قرطبة.

كان ابن شهيد يهاب الموت ومما قاله:

أَنُوحُ على نَفْسِي وأندبُ نُبْلَهَا إذا أنا في الضَّرَّاءِ أزمعْتُ قتلَهَا
رضيتُ قضاءَ اللَّهِ في كُلِّ حالة عليَّ وأحكاماً تيقَّنْتُ عدلَهَا
أظلُّ قعيد الدّار تجنُبُني العصا على ضَعْفِ ساقٍ أوْهَن السُّقْمُ رجلَهَا

كما قال:

هذا كِتابي وكَفُّ الموْتِ تُزْعِجُنِي عن الحياةِ وفي قلْبي لكم ذِكَرُ
إنْ أقضِكُم حقَّكُم مِن قِلَّةٍ عُمُري إنِّي إلى اللَّهِ لا حقٌّ ولا عُمُرُ

فحياته مزيج من النعيم، والشقاء، والفرح والألم، والوئام والبغض، والحسد والغبطة، تنقل فيها الشاعر دون رغبة منه، أو إرادة تنقل المجبور الميسر لها، فأحس لكل حال شعوره، وعاش فيه وعايشه، فكانت طبيعة حياته، وعواطفه تركيبة من الانفعالات النفسية الخاصة، والتأملات الفكرية، وكان أدبه سجلاً يدون تاريخ الأندلس، في أوضاعها السياسية، والاجتماعية، والطبيعية.

المحاضرة الثانية عشرة

نماذج من علماء الأندلس

الشخصية الثانية ابن زيدون

عناصر المحاضرة:

النشأة والميلاد.

الفنون النثرية عند ابن زيدون.

شعر ابن زيدون.

ابن زيدون وولادة.

برع "ابن زيدون" في الشعر كما برع في فنون النثر، حتى صار من أبرز شعراء الأندلس المبدعين وأجملهم شعرًا وأدقهم وصفًا وأصفاهم خيالا، كما تميزت كتاباته النثرية بالجودة والبلاغة.

الميلاد والنشأة

ولد الشاعر "أحمد بن عبد الله بن أحمد بن أحمد بن غالب بن زيد المخزومي" سنة (394هـ= ١٠٠٣م) بالرصافة من ضواحي قرطبة،

وهي الضاحية التي أنشأها "عبد الرحمن الداخل" بقرطبة، واتخذها متنزهًا له ومقرًا لحكمه، ونقل إليها النباتات والأشجار النادرة، وشق فيها الجداول البديعة حتى صارت مضرب الأمثال في الروعة والجمال، وتغنّى بها الكثير من الشعراء.

وفي هذا الجو الرائع والطبيعة البديعة الخلابة نشأ ابن زيدون؛ فتفتحت عيناه على تلك المناظر الساحرة والطبيعة الجميلة، وتشربت روحه بذلك الجمال الساحر، وتفتحت مشاعره، ونمت ملكاته الشاعرية والأدبية في هذا الجو الرائع البديع.

وينتمي "ابن زيدون" إلى قبيلة "بني مخزوم" العربية، التي كانت لها مكانة عظيمة في الجاهلية والإسلام، وعرفت بالفروسية والشجاعة.

وكان والده من فقهاء "قرطبة" وأعلامها المعدودين، كما كان ضليعًا في علوم اللغة العربية، بصيرًا بفنون الأدب، على قدر وافر من الثقافة والعلم.

أما جده لأمه "محمد بن محمد بن إبراهيم بن سعيد القيسي" فكان من العلماء البارزين في عصره، وكان شديد العناية بالعلوم، وقد تولى القضاء بمدينة "سالم"، ثم تولى أحكام الشرطة في "قرطبة."

وما كاد يبلغ ابن زيدون الحادية عشرة من عمره حتى فقد أباه، فتولى جده تربيته، وكان ذا حزم وصرامة، وقد انعكس ذلك على أسلوب تربيته لحفيده، واهتم الجد بتربية حفيده وتنشئته تنشئة صحيحة وتعليمه العربية والقرآن والنحو والشعر والأدب، إلى غير ذلك من العلوم.

وتهيأت له - منذ الصغر- عوامل التفوق والنبوغ، فقد كان ينتمي إلى أسرة واسعة الثراء، ويتمتع بالرعاية الواعية من جده وأصدقاء أبيه، ويعيش في مستوى اجتماعي وثقافي رفيع، فضلا عما حباه الله به من ذكاء ونبوغ، وما فطره عليه من حب للعلم والشعر وفنون الأدب.

كما تلقى ثقافته الواسعة وحصيلته اللغوية والأدبية على عدد كبير من علماء عصره وأعلام الفكر والأدب في الأندلس، في مقدمتهم أبوه وجده، كما اتصل بكثير من أعلام عصره وأدبائه المشاهير.

فتوطدت علاقته -في سن مبكرة - بأبي الوليد بن جَهْور الذي كان قد ولي العهد ثم صار حاكمًا، وكان حافظًا للقرآن الكريم مجيدًا للتلاوة،

وقد امتدت هذه الصداقة بينهما حتى جاوز الخمسين، وتوثقت علاقته كذلك بأبي بكر بن دُكْوان الذي ولي منصب الوزارة، وعرف بالعلم والعفة والفضل، ثم تولى القضاء فكان مثالا للحزم والعدل، فأظهر الحق ونصر المظلوم، وردع الظالم.

وقد ساهم "ابن زيدون" بدور رئيسي في إلغاء الخلافة الأموية بقرطبة، كما شارك في تأسيس حكومة جَهْوَريّة بزعامة "ابن جهور"، وإن كان لم يشارك في ذلك بالسيف والقتال، وإنما كان له دور رئيسي في توجيه السياسة وتحريك الجماهير.

وذلك باعتباره شاعرًا ذائع الصيت، وأحد أعلام "قرطبة" ومن أبرز أدبائها المعروفين، فسخر جاهه وثراءه وبيانه في التأثير في الجماهير، وتوجيه الرأي العام وتحريك الناس نحو الوجهة التي يريدها.

وحظي "ابن زيدون" بمنصب الوزارة في دولة "ابن جهور"، واعتمد عليه الحاكم الجديد في السفارة بينه وبين الملوك المجاورين، إلا أن "ابن زيدون" لم يقنع بأن يكون ظلا للحاكم، واستغل أعداء الشاعر ومنافسوه هذا الغرور منه وميله إلى التحرر والتهور.
فأوغروا عليه صدر صديقه القديم، ونجحوا في الوقيعة بينهما، حتى انتهت العلاقة بين الشاعر والأمير إلى مصيرها المحتوم.
الفنون النثرية عند ابن زيدون:
اتسم النثر عند "ابن زيدون" بجمال الصياغة، وكثرة الصور والأخيلة، والاعتماد على الموسيقا، ودقة انتقاء الألفاظ حتى أشبه نثره شعره في صياغته وموسيقاه، وقد وصف "ابن بسام" رسائله بأنها "بالنظم الخطير أشبه منها بالمنثور."
وبالرغم من جودة نثر "ابن زيدون" فإنه لم يصل إلينا من آثاره النثرية إلا بعض رسائله الأدبية، ومنها:الرسالة الهزلية، الرسالة الجدية.
الرسالة الهزلية: التي كتبها على لسان "ولادة بنت المستكفي" إلى "ابن عبدوس" وقد حمل عليه فيها، وأوجعه سخرية وتهكمًا، وتتسم هذه الرسالة بالنقد اللاذع والسخرية المريرة.
وتعتمد على الأسلوب التهكمي المثير للضحك، كما تحمل عاطفة قوية عنيفة من المشاعر المتبانية: من الغيرة والبغض والحب، والحقد، وتدل على عمق ثقافة "ابن زيدون" وسعة اطلاعه.
وقد شرحها "جمال الدين بن نباتة المصري" في كتابه: "سرح العيون"، كما شرحها "محمد بن البنا المصري" في كتابه: "العيون."
الرسالة الجدية: وقد كتبها الشاعر في سجنه في أخريات أيامه، يستعطف فيها الأمير "أبا الحزم" ويستدر عفوه ورحمته، وهي أيضًا تشتمل على الكثير من الاقتباسات والأحداث والأسماء.
ومع أن الغرض من رسالته كان استعطاف الأمير إلا أن شخصية "ابن زيدون" القوية المتعالية تغلب عليه، فإذا به يدلّ على الأمير بما يشبه المنّ عليه، ويأخذه العتب مبلغ الشطط فيهدد الأمير باللجوء إلى خصومه.
ولكن الرسالة ـ مع ذلك ـ تنبض بالعاطفة القوية وتحرك المشاعر في القلوب، وتثير الأشجان في النفوس.
وقد شرحها "صلاح الدين الصفدي" في كتابه: "تمام المتون"، و"عبد القادر البغدادي" في كتابه: "مختصر تمام المتون."
شعره:
لابن زيدون مدائح كثيرة في أبي الحزم بن جهور وأبي الوليد وفي المعتضد وابنه المعتمد ، كما مدح بعض أفراد الطوائف ، وله رثاء في أبي الحزم بن جهور وفي المعتضد وفي بعض أبناء الخاصة، وهو يستهل مدائحه غالبا على طريقة القدماء وأمّا مراثيه فيبدأها بذكر فداحة المصاب أو بحكمة تتناول ذكر الدهر وغدره .
ولا نجد في مدح ابن زيدون ورثائه تجديدا فعليا ، بل نراه يتناول المعاني الشائعة عند القدماء ،كذكر الكرم والشجاعة والتقوى وسائر المعاني التي لم يبلغ بها شأو المشارقة.
وفي تقليد القدامى عمد أحيانا إلى المبالغة المعنوية واللفظية وحتى إنه يغالي في بعض أقواله فيصل حد النفور.
أما شعره في ولّادة فهو من نوع الغزل الصادق، فيه تتجلى قوة عاطفة الشاعر وهي عاطفة تتأرجح بين الشكوى والعتاب والألم والذكرى والحنين والرجاء، ويبدو الشاعر في غزله ناقما على الوشاة حاقدا على الدهر.

واللافت في غزل ابن زيدون وفي شعره بعامة ميله إلى المبالغة التي هدف منها التأثير في السامع وتحريكه العواطف.
وفي شعر ابن زيدون أبيات تدل على أنه لم يتخلص من رواسب القديم.
والمعروف أنه عاش في بيئة تختلف عن تلك التي عاش فيها المشارقة ، ومع ذلك ظل يقترض الصيغ والتعابير من الشرق القديم وقد لقب ابن زيدون ببحتري الغرب وذلك لسببين:
السبب الأول: هو طول النفس ، إذ جاءت أكثر قصائده في المديح والغزل طويلة.
السبب الثاني: هو ولع ابن زيدون بالزخارف الشعرية ، إذ أكثر في الصنعة فجاءت أبياته كشعر البحتري غنية بالصور البيانية والمحسنات البديعية.
وإذا كان ابن زيدون قد أعجب بالمشارقة فذلك لا يعني التقليد التام ولا يعني أنه ضيع شخصيته ، فله الكثير من المعاني الجديدة التي تجعله في طليعة الأندلسيين ومن كبار شعراء العربية.
هذا هو ابن زيدون الذي عاش في تقلبات الأوضاع السياسية في الأندلس فشهد سقوط الدولة الأموية وقيام دويلات ملوك الطوائف ،كما أنه عاش حياة ثقافية فقد انتشرت العلوم والآداب وكان الأمراء يتنافسون في تعزيزها، وأصبح الاهتمام بالمكتبات أمرا بارزا.
الإخوانيات الشعرية عند ابن زيدون:
كان "ابن زيدون" شاعرًا أصيلا متمكنا في شتى ضروب الشعر ومختلف أغراضه، وكان شعره يتميز بالصدق والحرارة والبعد عن التكلف، كما كان يميل إلى التجديد في المعاني، وابتكار الصور الجديدة، والاعتماد على الخيال المجنح؛ ولذا فقد حظي فن الإخوانيات عنده بنصيب وافر من هذا التجديد وتلك العاطفة.
ومن ذلك مناجاته الرقيقة لصديقه الوفي "أبي القاسم:"
يا أباالقاسم الذي كان ردائي وظهيري من الزمان وذخري
غزليات ابن زيدون:
يحتل شعر الغزل نحو ثلث ديوان "ابن زيدون"، وهو في قصائد المدح يبدأ بمقدمات غزلية دقيقة، ويتميز غزله بالعذوبة والرقة والعاطفة الجياشة القوية والمعاني المبتكرة والمشاعر الدافقة التي لا نكاد نجد لها مثيلا عند غيره من الشعراء إلا المنقطعين للغزل وحده من أمثال (عمر بن أبي ربيعة)،و (جميل بن مَعْمَر)، و(العبّاس بن الأحنف).
ومن عيون شعره في الغزل تلك القصيدة الرائعة الخالدة التي كتبها بعد فراره من سجنه بقرطبة إلى "إشبيلية"، ولكن قلبه جذبه إلى محبوبته بقرطبة فأرسل إليها بتلك الدرة الفريدة (النونية).
ابن زيدون وولادة:
كان ابن زيدون شاعرًا مبدعًا مرهف الإحساس، وقد حركت هذه الشاعرية فيه زهرة من زهرات البيت الأموي، وابنة أحد الخلفاء الأمويين، وهي "ولادة بنت المستكفي».
وكانت شاعرة أديبة، جميلة الشكل، شريفة الأصل، عريقة الحسب، وقد وصفت بأنها "نادرة زمانها ظرفًا وحسنًا وأدبًا."
وبعد سقوط الخلافة الأموية في "الأندلس" فتحت ولادة أبواب قصرها للأدباء والشعراء والعظماء، وجعلت منه منتديًا أدبيًا، وصالونًا ثقافيًا، فتهافت على ندوتها الشعراء والوزراء مأخوذين ببيانها الساحر وعلمها الغزير.
وكان "ابن زيدون" واحدًا من أبرز الأدباء والشعراء الذين ارتادوا ندوتها، وتنافسوا في التودد إليها، ومنهم "أبو عبد الله بن القلاس"، و"أبو عامر بن عبدوس" اللذان كانا من أشد منافسي ابن زيدون في حبها.

وقد هجاهما "ابن زيدون" بقصائد لاذعة، فانسحب "ابن القلاسي"، ولكن "ابن عبدوس" غالى في التودد إليها، وأرسل لها برسالة يستميلها إليه.
فلما علم "ابن زيدون" كتب إليه رسالة على لسان "ولادة" وهي المعروفة بالرسالة الهزلية، التي سخر منه فيها، وجعله أضحوكة على كل لسان، وهو ما أثار حفيظته على "ابن زيدون"؛ فصرف جهده إلى تأليب الأمير عليه حتى سجنه، وأصبح الطريق خاليًا أمام "ابن عبدوس" ليسترد مودة "ولادة."
الفرار من السجن:
فشلت توسلات "ابن زيدون" ورسائله في استعطاف الأمير حتى تمكن من الفرار من سجنه إلى "إشبيلية"، وكتب إلى ولادة بقصيدته النونية الشهيرة التي مطلعها:
أضحى التنائي بديلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا
وما لبث الأمير أن عفا عنه، فعاد إلى "قرطبة" وبالغ في التودد إلى "ولادة"، ولكن العلاقة بينهما لم تعد أبدًا إلى سالف ما كانت عليه من قبل.
ولم تمض بضعة أشهر حتى توفي الأمير، وتولى ابنه "أبو الوليد بن جمهور" صديق الشاعر الحميم، فبدأت صفحة جديدة من حياة الشاعر، ينعم فيها بالحرية والحظوة والمكانة الرفيعة.
ولكن خصوم الشاعر ومنافسيه لم يكفوا عن ملاحقته بالوشايات والفتن والدسائس حتى اضطر الشاعر ـ في النهاية ـ إلى مغادرة "قرطبة" إلى "إشبيلية"
المؤامرة على الشاعر:
واستطاع "ابن زيدون" بما حباه الله من ذكاء ونبوغ أن يأخذ مكانة بارزة في بلاط "المعتضد"، حتى أصبح المستشار الأول للأمير، وحاول أعداء الشاعر ومنافسيه أن يوقعوا بينه وبين الأمير الجديد، بعدما تولى "المعتمد" العرش خلفًا لأبيه، ولكن الأمير أدرك المؤامرة.
وكان الشاعر عند ظن أميره به، فبذل جهده في خدمته، وأخلص له، فكان خير عون له في فتح "قرطبة"، ثم أرسله المعتمد إلى "إشبيلية" على رأس جيشه لإخماد الفتنة التي ثارت بها، وكان "ابن زيدون" قد أصابه المرض وأوهنته الشيخوخة، فما لبث أن توفي بعد أن أتمّ مهمته في (أول رجب ٤٦٣هـ= ٤ من إبريل ١٠٧١م) عن عمر بلغ نحو ثمانية وستين عامًا.

المحاضرة الثالثة عشر

نماذج من علماء الأندلس
الشخصية الثالثة لسان الدين الخطيب
عناصر المحاضرة:
النشأة والميلاد.
علمه وثقافته
أعماله وانجازاته ومؤلفاته.
نهاية حياته ومقتله.
المقدمة:
العلامة الشهير (لسان الدين بن الخطيب الأندلسي)، هو بحر من بحور العلم في الأدب والشعر والفقه والموسيقى والطب ....وغيره من العلوم. الذي شاع صيته و تلألأت غرناطة بأنوار مؤلفاته وشتى علومه، ونتعرف هنا على سيرته الذاتية، واستعراض لأهم أعمال وانجازاته، ومعرفة نهاية حياته، والاستفادة من علومه.
نسبه و نشأته:

لسان الدين ابن الخطيب هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن السعيد السّلماني اللوشي الأصل الغرناطي الأندلسي، أحد أشهر علماء الأندلس ومفكريها ومن شعراء الأندلس .
نبغ في الأدب والتاريخ والتراجم والسير والطب. أخذ الطب عن الإمام أبي زكريا ابن هذيل التجيبي، الذي كان يُعزّه ابن الخطيب إعزازا شديدا.
و لقب بالسلماني نسبة إلى (سلمان) موضع باليمن، ومنه قدم أهله إلى الأندلس عقب الفتح الإسلامي واستقروا في قرطبة ثم انتقلوا إلى طليطلة بعد ثورة أهل الربض بقرطبة سنة ٢٠٢/هـ.
ولما اشتد خطر النصارى على طليطلة في منتصف القرن الخامس للهجرة انتقلوا، أيام جده سعيد إلى (لوشه) غرب غرناطة وكان سعيد عالما ورعا فجعل يلقى دروسه ومواعظه في (لوشة) فعرف بالخطيب وعرفت الأسرة باسم آل الخطيب.
وفي مدينة (لوشة) ولد ابن الخطيب سنة ٧١٣/هـ، ونشأ في غرناطة، وبها تلقى علومه على كبار علمائها، وفيهم العالم باللغة والأدب والعالم بالفقه والأصول وفيهم العالم بالطب. فنهل من كل هذه العلوم.
علمه و ثقافته:
أخذ القرآن عن أبي الحسن بن محمد بن أبي العيش وأبي عبد الله بن أحمد بن عروس، وابن الأصلي، وتعلم قواعد العربية عن أبي الحجاج بن يسعون.
و كان ابن الخطيب يحب تعلم العلم النافع والسفر لأجل ذلك، كما كان يجمع طلابه في مجلسه ويعلمهم.
ويقول المؤرخون أنه كان ذا شخصية جذابة مؤثرة وكان ذا بيان قوي ومهارة عالية في الحوار والنقاش في العلم، كان يقضي معظم أوقاته في مكتبة القصر يقرأ الكتب وينسى نفسه، و كان يقول (أنا ليس لي من هذه الدنيا سوى قلمي).
وبذلك قطف ابن الخطيب ثمرة معرفته من العلماء و أهل العلم، وكان على دراية بخطوط القوى في القصر عند توليه الوزارة، ووصلت شهرته حتى إلى القاهرة في مصر.
أعماله وانجازاته ومؤلفاته:
توليه للوزارة:
وفي عام ٧٤١/هـ تولى الكتابة في ديوان الإنشاء خلفا لأبيه الذي توفي في ذلك العام.
وفي عام ٧٤٩/هـ تولى الوزارة خلفا لأبي الحسن بن الجياب الذي توفي في ذلك العام، وكان وزير السلطان أبي الحجاج يوسف (الأول).
واستمر ابن الخطيب في الوزارة بعد مقتل السلطان أبي الحجاج سنة ٧٥٥/ هـ وقيام ابنه محمد (الخامس) الغني بالله خلفا له.
وسافر لسان الدين للغني بالله السلطان المريني أبي عنان فارس تأكيدا للمودة بينهما، واستنجادا على الطاغية الإسباني ملك قشتاله، ونجح لسان الدين في سفارته، فعظمت ثقة الغني بالله بلسان الدين.
ورفع رتبته ولقبه بذي الوزارتين، الكتابة والوزارة، فكان لسان الدين بن الخطيب يقوم بتصريف شؤون المملكة بما لديه من خبره عريقة في التعامل مع المملوك والسلاطين، ومع شؤون القصر، وشؤون غرناطة.
ابن الخطيب طبيبا:
يخبرنا في ترجمته لنفسه أنه أخذ الطب عن الإمام أبي زكريا ابن هذيل، وأنه لازمه إلى آخر حياته.
وابن هذيل هو يحيى بن أحمد بن هذيل.

وقد قال عنه ابن الخطيب أنه كان آخر حملة الفنون العقلية بالأندلس، وخاتمة العلماء بها من طب وهندسة وأصول وأدب. كان غير مبال بالناس، مشغولا بخاصة نفسه، وقعد بالمدرسة بغرناطة يقرئ الأصول والفرائض والطب.

لم يتفرغ ابن الخطيب لممارسة الطب تفرغا تاما؛ إذ كان مشغولا بأمور الدولة عندما كان وزيرا. إلا أنه يمكننا أن نؤكد بأن عنايته بالتأليف في مجال الطب كانت كبيرة. ويمكن في هذا المجال ذكر مؤلفات ابن الخطيب في مجال الطب وذلك كما وردت في كتاب الإحاطة في ترجمة المؤلف لنفسه، أو كما وردت في نفح الطيب للمقري، وهي كما يلي:

رسالة في الطب سماها: مقنعة السائل عن المرض الهائل. وهي رسالة كتبها عن الطاعون الجارف الذي دهم الأندلس وسائر العالم الإسلامي سنة(٧٤٨/هـ /1348)م

أرجوزة في الطب.

أرجوزة في الأغذية.

الوصول لحفظ الصحة في الفصول.

كتاب في علاج السموم.

المسائل الطبية.

رسالة في تكوين الجنين.

اليوسفي في الطب.

كتاب عمل من طب لمن أحب، وهو مؤلف طبي هام يتناول فيه ابن الخطيب مختلف الأمراض مع أسباب كل مرض وأعراضه وعلاجه ونظام الغذاء الذي يناسبه،

كما يتحدث فيه المؤلف عن مختلف أعضاء الجسم وطرق العناية بها، ألف كتابَهُ هذا لسلطان المغرب أبي سالم بن أبي الحسن المريني. وقد انتهى من تأليفه سنة ٧٦١هـ.

توجد منه نسخة خطية في الخزانة الحسنية رقمها ٣٤٧٧/مجموع (١)، ونسخة أخرى بخزانة القرويين في فاس رقمها 40/607، ونسخة ثالثة في المكتبة الوطنية بمدريد. وفي سنة ١٩٧٢ نشرت جامعة سلمانقة الإسبانية نسخة محققة من الكتاب، بدون أي شرح أو إيضاح. بل إن النسخة تحتوي على كثير من الأخطاء الإملائية، وتنتهي بسرد للمصطلحات ومعجم الأسماء الطبية ومقابلاتها بالإسبانية.

مؤلفات ابن الخطيب:

كان ابن الخطيب عالما بالتاريخ والفلسفة والرياضيات كما كان عالما بالفقه والأصول وألف فيها كلها ومؤلفاته تقع في نحو ستين كتاباً، منها:

الإحاطة في أخبار غرناطة.

اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية.

الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة.

نفاضة الجراب في علالة الاغتراب.

أعمال الأعلام فيمن بُويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، وما يجر ذلك من شجون الكلام.

السحر والشعر.

ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب.

جيش التوشيح.

روضة التعريف بالحب الشريف.

خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف.

عمل من طب لمن حب.
فن العلاج في صنعة الطب.
معيار الاختيار في أهوال المعاهد والديار.
الإعلام لمن بويع قبل الاحتلام.
تاريخ ملوك غرناطة إلى سنة ٧٦٥/هـ.
طرفة العصر في دولة بني نصر.
رسالة في الموسيقى.
الحلل المرقومة في اللمع المنظومة: وهي أرجوزة من ألف بيت في أصول الفقه.
والدّيوان الوحيد الذي يجمع شعر ابن الخطيب، ووصل إلينا هو ديوان: (الصيب والجهام، والماضي والكهام).
وقد حَقَّقه :د.محمد الشريف قاهر، ونشر في الجزائر عام1975 م، وهناك ديوان آخر حَقَّقه د.محمد مفتاح بلغزواني، وجعله في مجلدين بعنوان: (ديوان لسان الدين بن الخطيب السلماني).
ويلاحظ أنه استقى مادته في المقام الأول من ديوان: "الصيب والجهام والماضي والكهام"، الذي سبق وأن حقّق في الجزائر بمعرفة د.محمد الشريف قاهر، ومنه جاء أغلب الشعر، إلى جانب مصادر ابن الخطيب الأخرى.
ومن أجمل أشعاره من الموشحات الأندلسية جادك الغيث- موشح أندلسي – التي يقول في مطلعها:
جادك الغيث إذا الغيث همى
يا زمان الوصل بالأندلس
****
لم يكن وصلك إلا حلما
في الكرى أو خلسة المختلس

- **نهاية حياة ابن الخطيب (مقتله):**

الأيام الصعبة:
وفي ٢٨ رمضان سنة ٧٦٠/هـ خلع الغني بالله وسار فارّا إلى فاس ونزل على السلطان أبي سالم إبراهيم، وهو أخو أبو عنان فارس وكان قد توفي سنة ٧٥٩/هـ.
ولم يستطع لسان الدين أن يصانع السلطان إسماعيل (الثاني) ابن يوسف الذي خلع أخاه محمد الغني بالله، فنكبه السلطان وصادر أمواله بتحريض من حوله من حساده، واستطاع لسان الدين أن يهرب فلجأ إلى فاس لاحقا بالسلطان المخلوع.
وفي أوائل سنة ٧٦٣/هـ أقدم أمير من أمراء بني نصر يدعى أبا سعيد محمد على قتل إسماعيل (الثاني) وإعلان نفسه سلطانا باسم محمد (السادس)، فما أن علم محمد (الخامس) الغني بالله بذلك حتى عاد إلى الأندلس بقوة زوده بها السلطان المريني أبو سالم إبراهيم، ونزل في (رنده) وكانت من أملاك بني مرين ومنها سار بقوته ودخل غرناطة.
هرب أبو سعيد محمد (السادس) لاجئا إلى ملك قشتاله. واستدعى الغني بالله لسان الدين من فاس، ورده إلى الوزارة وأعاد تلقيبه بذي الوزارتين فعلت مكانته من جديد وعظم نفوذه، وازدهى لسان الدين بهذه المكانة الرفيعة التي أحله بها السلطان.
فأثار بذلك حسد حساده وفيهم الوزير ابن زمرك تلميذ ابن الخطيب، ومعه أبو الحسن علي النباهي قاضي الجماعة في غرناطة وكانا صنيعة لسان الدين وغرس نعمته، فجعلوا يحرضون الغني بالله عليه

ويتهمونه بالانحراف بولائه والإلحاد، وعلم بذلك لسان الدين، ورأى أن الأسلم له أن يبارح الأندلس فاستأذن الغني بالله في الحج فأذن له.
توجه لسان الدين إلى فاس لاجئا إلى السلطان المريني أبي فارس عبد العزيز المستنصر بن أبي الحسن علي وكان قد تولى السلطنة سنة ٧٦٧/هـ بعد أحداث جرت في فاس بين "المتنافسين" على السلطة، فكتب الغني بالله إلى المستنصر المريني بالقبض على لسان الدين وقتله، فلم يلتفت المستنصر لهذا الطلب.
وجرت لابن الخطيب محاكمة غيابية في غرناطة، حضرها الفقهاء وكبار العلماء، اتهم فيها بالإلحاد اعتمادا على بعض ما جاء في كتابه (روضة التعريف بالحب الشريف) المعروف بكتاب (المحبة)، حيث أولوا بعض مقولاته وفق مقاصدهم، وزعموا أن فيها ما يتضمن طعنا بالنبي صلى الله عليه وسلم، والقول بالحلول ومجاراة مذهب الفلاسفة الملحدين.
وكان تلميذه وخلفه في الوزارة القاضي أبو الحسن النباهي أكبر المروجين لهذه الدعاية، وهو الذي تولى صوغ الاتهام وأفتى بوجوب قتله وحرق كتبه. وقد أحرقت كتبه في غرناطة بمحضر من الفقهاء والعلماء والمدرسين.
وفي عام ٧٧٤/هـ توفي السلطان أبو فارس عبد العزيز وخلفه ابنه أبو زيان محمد السعيد، وكان طفلا وتولى كفالته والقيام بشؤون الدولة الوزير أبو بكر غازي. وكرر الغني بالله طلبه بتسليم ابن الخطيب أو قتله، فلم يستجب الوزير لطلبه.
وقام السلطان الغرناطي الغني بالله باصطناع فتنة في المغرب أطاحت بالسلطان المريني القاصر وبوزيره أبو بكر غازي.
وتولية السلطنة أبا العباس أحمد المستنصر بن إبراهيم بن علي، وتولية الوزارة لسليمان بن داود، وعلى الأثر حضر الوزير ابن زمرك إلى فاس يطالب أبا العباس المستنصر بثمن إيصاله إلى العرش والقبض على لسان الدين وإعدامه تنفيذا للحكم الصادر عليه في غرناطة، والذي صدّقه الغني بالله.
ولكن أبن العباس المستنصر آثر أن تجري محاكمته بحضوره، فعقد له مجلسا من رجال الدولة والشورى، واستدعى ابن الخطيب ووجهت إليه التهم المنسوبة إليه، وأخصها تهمة الإلحاد والزندقة.
وعرضت العبارات التي وردت في كتابه (المحبة) فعظم النكير فيها ووبخ ونكل به، وامتحن بالعذاب الشديد على مشهد من الملأ.
وقد أفتى بعض الفقهاء بقتله، ثم سحبوه سحباً إلى سجنه، وتشاوروا مايفعلون به فحكم عليه بالموت، وفي الليل دخل الخدم من أنصار سلطان فاس وغرناطة فأنهوا حياة هذا العالم.

المحاضرة الرابعة عشر

نماذج من النثر الأندلسي
عناصر المحاضرة:
الرسالة الجدية لابن زيدون.
رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد
النموذج الأول: الرسالة الجدية لابن زيدون
مِنْ فنون العربية والتي قلّ تناولها رغم ما تختزله مِنْ قيم معرفية وثقافية كبرى، إنّه فن الرسائل الأدبية والتي ازدهرت في القرن الرابع الهجري.
ومِن الرسائل التي تعد أنّها مِنْ عيون أدب المراسلات، هي الرسالة الجِدية لصاحب الوزارتين الشاعر النرجسي العاشق ابن زيدون والتي كتبها في سجنه بقرطبة وأرسلها مُستعطفاً أبا الوليد بن جَهور ولي

العهد لعله يستشفع له عند والده أبي الحزم بن جَهور ليُطلق سراحة، وسُميت هذه الرسالة بالجِدية لتفريقها عن رسالته المُسمّاة بالهزلية والتي سَخِرَ فيها كثيرا مِن منافسه الوزير ابن عبدوس في حب ولاّدة بنت المُستكفي.

ونقف على مقتطفات من الرسالة الجِدية ومِن ثم الوقوف تِباعاً على مابها من أدبيات رفيعة الشأن..

ومنها:

أ) يامولايَ وسيّدي، الّذي ودادي له، ومَنْ أبقاه الله تعالى ماضِيَ حدّ العزم، وارى زَنْد الامل، ثابتَ عهدِ النّعمه، أظمأتني إلى برودِ إسعافكَ، ونفضتَ بي كفَّ حِياطتك، وغضضتَ عني طرفَ حمايتك، بعدَ أن نظر الأعمى إلى تأميلي لكَ، وسَمِعَ الأصمُّ ثنائي عليك، وأحسّ الجماد بإستنادي إليكَ، فلا غرو:

قد يغصُّ بالماءِ شاربهُ، ويقتلُ الدواء المستشفيَ به، ويُؤتى الحَذِرُ من مأمنه، وتكونَ منيّةُ المُتمني في أمنيتهِ والحينُ قد يسبقُ جُهدَ الحريص:

كل المصائبِ قد تمرُّ على الفتى **وتهونُ غير شماتـةِ الحُسّـادِ

ب) وإنّي لأتجلدُ، وأُريَ الشامتينَ أنّي لريَب الدَّهر لا أتضعضعُ، فأقول:

هل أنا إلا يدٌ أدماها سُوارُها، وجبينٌ عضَّ به إكليلهُ؟ ومشرفيٌ ألصقهُ بالأرضِ صاقِلهُ، وسمهريٌ عَرَضَه على النُار مُثَقّفُه؟ وعبدٌ ذهب به سيده مذهب الذي يقول:

فقَسَا ليزدجروا ومَنْ يكُ حازماً** فليقسُ أحياناً على مَنْ يَرْحَمُ

هذا العتبٌ محمودٌ عواقبه، وهذهِ النّبوةُ غمرةٌ ثم تنجلي، وهذه النكبةُ سحابةُ صيفٍ عن قريبٍ تُقَشَّعُ، ولن يريبني من سيّدي أن أبطأ سَحَابُه، أو تأخر-غير ضنين- عَنَاؤه، فأبطأُ الدلاءِ فيْضاً أملؤُها، وأثقلُ السحائب مشياً أحفلُها، وأنفع الحيا ماصادف جَدْبا، وألذُّ الشَّراب ما أصابَ غليلاً، ومع اليوم غدٌ، ولكل أجلٍ كتاب، له الحمد على اغتِنَامِهِ ولا عتب عليه في إغفاله.

فإن يكنِ الفعلُ الذي ساءَ واحدا **فأفعالهُ اللاتي سَرَرنَ ألـوفُ

ج) وأعود فأقول: ماهذا الذنبُ الذي لم يسعه عفوكَ؟ والجهلُ الذي لم يأتِ من ورائهِ حلمك؟ والتطاول الذي لم يستغرقهُ تَطوُّلكَ؟ والتحامل الذي لم يفِ به أحتمالك؟ ولا أخلو مِن أنْ أكونَ بريئاً، فأين العدلُ؟ أو مسيئاً، فأين الفضلُ؟

إلا يكن ذنبٌ فعدلـك واسـعُ**أو كان لي ذنبٌ ففضلك أوسعُ

التحليل:

الرّسالة الجِديّة مِن أشهر رسائل ابن زيدون كما تقدم معنا، وتبدأ الرسالة باستعطاف ابي الحزم ليطلق سراح ابن زيدون.

تنطق بذلك النداءات والعبارات (يامولاي وسيدي، والذي ودادي له، واعتمادي عليه، واعتدادي به)، وتدور الرسالة الجِدية حول المعاني الآتية:

الإشادة بمكانة أبي الوليد بن جَهور مع الإعتزار بمكان ابن زيدون الأدبي.

يتضح معنى المعاناة الشديدة والضيق والتبرم التي يبثها ابن زيدون من حاله في سجنه.

العِتاب والإطناب فيه وأنّه هو صابون القلوب كما يُقال ويُردف عتابه بأملٍ في الصفح والعفو.

التبرؤ مِن ذنبٍ يتوهم أنّه ارتكبه ويطلب التجاوز عنه.

التعريض وبشناعة بالوشاة الحاسدين وكيف أنّهم استطاعوا بخلق القطيعة وقطع أوصال الوداد.

تأكيد الدائم بأنّه باقٍ على عهده مُتعلقٌ بحبل الوفاء والمودة.

ثناء وإشادة ومديح مُبالغٌ فيه بأبي الوليد بن جَهور.

أهم الخصائص الفنية في الرسالة:

تتجلى في الرسالة مواهب ابن زيدون المتعددة في السياسة والشعر والكتابة وسعة الاطلاع، يتضح ذلك فيما يلي:
يتضح مِن خلال الرسالة سعة أفق ابن زيدون، وصِلته القوية بالتراث العربي في ماضيه، ويُقدّس القرآن والحديث النبوي ويقتبس منهما اقتباساً مناسبا.
كثرة العناية بالناحية اللفظية إلاّ أنّ ذلك لم يُغطّ على معاني الرسالة السامقة وعاطفتها الهادرة، فهي بحق رسالة أدبية بصياغتها ومشاعرها وموسيقاها وصلتها القوية بنفس قائلها ونفس الأمير (ابن جَهور).
ابن زيدون يمتاز عن غيره بأنّه شاعرٌ كاتب وقلما تجد مَن يمتلك تلك المقدرة الفذّة.
المقدرة الفائقة على استمالة الوزير أبي جهور وذلك باسلوبه وقوة العبارة ومنطقية الحجة، ومدخل الرسالة كان في غاية التوفيق بما اشتمل عليه من رجاء واستعطاف بحيث ملك قلب مولاه، واستولى على عقله، بما يضمن الإقبال على الرسالة.
مدى صدق ابن زيدون فيما سطر في رسالته.
نجح ابن زيدون في اثبات ان غضب الوزير عليه وعقابه له لم يغير موقفه في الإعتراف بفضله عليه وإذاعته بين الناس، حتى رآه الأعمى وسمعه الأصم، ومع ذلك كان التنكيل بابن زيدون، وهي مفارقة يبدو فيها الوزير قد صار متهما بالظلم والعقوق لابن زيدون، حيث قابل الاحسان بالاساءات.
النموذج الثاني: رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد
عندما خطَّ ابن شهيد قصته التي أجرى أحداثها في عالم " الجن والشياطين " كان يحذوه في كتابتها، وتدوين وقائعها الخيالية، شعور نفسي عميق بالحنق والضيق من جهل أبناء عصره بحجم قدراته.
فكانت قصته وسيلة يوضح من خلالها ما يدور في خلجات نفسه من رأي فيما حوله من نتاج أدبي، ومتنفس يبدي من خلالها وجهة نظره في أدبه خاصة وأصول النظم الفني ومناهجه في الأدب العربي عامة.
ثم هي تجمع بين طياتها هدفاً طالما أقض مضجع فكره ونفسه، وهو السعي لإثبات قدرته الأدبية بانتزاع شهادات نقدية وتقديرية من شياطين الشعراء، والكتاب، والنقاد، لتبرهن على مدى تفوقه في البيان، وحسن أسلوبه في التعبير والكلام.
ومجالاً للتندر بطريقة ساخرة ممن كان مصدراً للحسد والحقد على ذاته أو على فنه، فكان أول ما تنبه إليه ابن شهيد أن عرضها يجب أن يتناسب وحجم الفكرة التي يتناولها، لذلك اختار (عالم الجن).
مسرحاً تدار فيه تلك الوقائع لكونه مما تُشدُ إليه العقول والأفهام لغرابته وطرافته، وأنه مما يثير في النفس مشاعر الخوف والفزع، ويدفع إلى حب الاستطلاع، فتتحقق بذلك أهدافه بشكل أكثر انتشاراً وذيوعاً، وثباتاً على مر العصور، وتنوع الثقافات، فيكون فيه الرد المناسب.
وقد أطلق على رسالته تلك مسمى " التوابع والزوابع " كما تعرف أيضاً بـ" شجرة الفكاهة" .
والتابع وهو الجني والجنية يكونان مع الإنسان يتبعانه حيث ذهب والزوابع (الدواهي ...، والزوبعة والزابعة ريح تدور في الأرض لا تقصد وجهاً واحداً ... تحمل الغبار وترتفع إلى السماء كأنها عمود ...
أخذت من التراب .. وصبيان الأعراب يكنون الإعصار أبا زوبعة يقال فيها شيطان مارد .. وزوبعة اسم شيطان .. أو رئيس من رؤساء الجن).
والرسالة قصة تكشف عن أسباب الإلهام وطرق استحضار شياطين الشعر، كما تحكي أحداث رحلة قام بها ابن شهيد في عالم الجن، التقى فيها بشياطين الشعراء والكتاب والنقاد وسمع منهم وأسمعهم بعضاً من شعره ونثره.

وتشتمل أيضاً على طائفة من آرائه النقدية مما حاز به إعجابهم وتقديرهم، وهو في أثناء ذلك الحوار بينه وبين الجن ينتهي دوماً إلى الفوز بإقرار فنيِ بتفوقه الأدبي وقدرته البيانية على التأليف والسرد.

سواء أكان ذلك الإقرار صادراً عن رغبة منهم وانبهار ببراعته الأدبية، أم عن حسد وامتعاض.

و تبدأ رحلته عندما استغلق عليه البيان وصعب عليه الشعر فتمثل له أثناء ذلك شيطانه وتابعه " زهير بن نمير"، فألهمه إتمام ما بدأه من نظم وما استغلق عليه من بيان، يقول :

"فأرتج عليَّ القولُ وأفحِمْتُ، فإذا أنا بفارسٍ ببابِ المجلِس على فرَسِ أدْهَمَ كما بقَلَ وجهه، قد اتكأ على رُمحِه، وصاح بي : أعَجْزاً يا فتى الإنس ؟ قلتُ : لا وأبيك، للكلام أحيان، وهذا شأن الإنسان ! قال لي : قلْ بعدَه :

كمثل ملال الفتى للنعيم ، إذا دام فيه وحال السرور

فأثبتُّ إجازتَه، وقلتُ له : بأبي أنت ! مَنْ أنت ؟ قال : أنا زُهَيرُ بن نُمَير من أشجَع الجِنِّ . فقلتُ : وما الذي حَداكَ إلى التصَوُّر لي ؟ فقال : هوىً فيك، ورغبةُ في اصطفائك . قلت : أهلاً بكَ أيّها الوجهُ الوَضّاح ، صادفتَ قلباً إليك مقلوباً، وهوىً نحوكَ مجنُوباً "

وقد كان ذلك الشيطان الذي أطلق عليه اسم زهير بن نُمير من أشجع الجن هو ظل الكاتب في السياق الذي يقدم الأدباء والنقاد للمعارضة ويعرف بشخصياتهم و قدراتهم وهيئاتهم التي ظهروا بها أو منحها إياهم في إطار رسالته، وتستمر رحلة الكاتب في إثبات النجاح الفني، فيتنقل ما بين الشعراء والكتاب والنقاد.

فيبادر أولاً بتوابع الشعراء لما عرف من صعوبة الشعر، وبلاغة مرتاديه، وبراعتهم في القول والحكم الصادق، ويجمع في ذلك العرض بين العصور الأدبية ذات الأثر الأبرز في الأدب العربي من جاهلي، وإسلامي، على التسلسل والتتابع.

فيبدأ بفحول الجاهليين كامرئ القيس بن حجر، وطرفة بن العبد، ويعقب برواد التجديد في العصر الإسلامي كأبي تمام، والبحتري، وأبي نواس، ثم يختم بشاعر نال احترام ابن شهيد وتقديره فضلاً عن غيره من الشعراء وهو المتنبي.

فيكون بذلك قد أقام الحجج الفنية التي يمتنع معها على أي شخص أن يعارضها أو ينفيها أو ينتقص من قدرته الشعرية على النظم في ضوئها.

ثم يعرج بعد ذلك على توابع الكتاب ؛ فبعد أن بلغ مطلبه من الشعراء وأثبت تفوقه الشعري، انتقل لكتاب النثر ليؤكد براعته في تناول النثر والتعبير به.

وهو كما سبق في الشعر يختار من الكتاب من ذاع صيته في الكتابة، وعلا سنامه في التناول النثري خاصة، فقابل صاحب الجاحظ وعبد الحميد، وبديع الزمان، وأبي إسحاق بن حمام..الخ.

في أثناء ذلك يأتي ببعض من نتاجه الأدبي في الوصف، وتحبير النثر، غير التي كان يوردها في حديثه مع أولئك الكتاب، ليدعم ما يُصدَرُ من أحكام تجاهه عند القارئ بالأدلة القاطعة والصور المبينة؛ وبعد أن قضى غرضه من الكتاب والشعراء، وبعد أن قضى غرضه من الكتاب والشعراء، وأثبت تفوقه الشعري والنثري.

أقدم على طرح آرائه النقدية ومناقشتها مع النقاد وشياطينهم، وهو في صميم ذلك التناول يتوجه لمعاصريه بالسخرية والتندر، من أسلوبهم ونتاجهم ، ويحتكم في ذلك إلى مواقفهم تجاهه وتجاه ما يقدمه من فن أدبي.

بعد ذلك العرض كان عند أدباء عصره خاتمة المطاف فقد ناقش ما لديهم من نتاج و قدرات بصورة طريفة إذ أجرى حواره عنهم على لسان الحيوانات.

ويخلص من ذلك كله إلى ما أراد ابن شهيد إثباته وهو التفوق الفني والقدرة الكلامية على التأليف والتعبير بأسلوب مشوق ينال إعجاب الكثير من المبدعين قديماً وحديثاً .

خصائص رسالة التوابع والزوابع:

احتلت الرسالة في نتاج الأدب العربي عامة، والأندلسي خاصة، مكانة مرموقة، وقيمة فنية ذات تأثير أدبي.

فهي تُذكر كدعامة مهمة في ريادة التعبير النثري في الأدب العربي.

وتعد من أبرز ما خط في إبداعية النسج التجديدي في الأدب الأندلسي.

فقد استقطبت بموضوعها، وتركيبها الأذهان، وأجمعت حول فنيتها، وإبداعها الأذواق.

أبرز الخصائص الفنية والجمالية الأدبية التي تتميز بها الرسالة:

أنها جمعت بين آفاق الخيال وتفاصيل حدود الحقيقة والواقع.

من جانب آخر نجده قد "بنى موضوعها على ما عرف وشاهد من مجالس الأدب والمناظرة في زمانه؛ وقبل زمانه، وفق ما تقرر من أحكام نقدية في الشعر والنثر، وما يبثه من معارضات شعرية وتاريخية قامت بين شعراء المشرق، وأحكام نقدية شخصية تبناها والتزم بها في مواقفه من الأخذ والمعارضة.

إضافة إلى ذلك فهي رسالة تعكس في خلفيتها طبيعة البيئة الأندلسية، الجميلة بما فيها من أزهار فواحة الشذى، وأنهار متلألئة جارية، وسماء صافية نقية...الخ.

ومن خصائص رسالة " التوابع والزوابع " أيضاً، أنها تعتبر كتاباً نقدياً متنوع الأغراض والقضايا والمواقف، تطرح فيها نظرة ذاتية لابن شهيد في النقد.

ومن سمات التميز الفني عند ابن شهيد في رسالته تلك ومن أظهر خصائصه في الوصف أن يتتبع الموصوف بتصوير ميزاته في الأعضاء، والألوان والصوت والحركة والطباع، حتى يجعله محساً بارز الشخصية لا شبحاً غامضاً.

ولغة الرسالة قريبة، وسهلة، خالية من التعقيد المعنوي أو الإغراب اللفظي إلا ما جاء فيها نادراً.

وتراكيبها واضحة الدلالة على ما تتضمنه من معانٍ وأوصاف، دقيقة في عرض التفاصيل، وتصوير الأحوال.

وهيكل البناء الفني للرسالة بصفة عامة، يمثل طابع الكتابة النثرية في الأدب الأندلسي، حيث يظهر فيها ازدياد ظاهرة المزج بين الشعر والنثر، وهو أسلوب انتهجه ابن شهيد الأندلسي بوضوح في سياق رسالته.

وأخيراً فرسالة " التوابع والزوابع " تقترب في نسجها وصياغتها الأسلوبية والمعنوية من أسلوب المقامات في الأدب المشرقي "كالاعتماد على الفكاهة والنكتة، وأسلوب القصص المعتمد على الحوار إلى جانب الصنعة اللفظية وخاصة السجع، مما يؤكد العلاقة بين رسائل أبي عامر هذه وبين المقامات.

تم بحمد الله